956.92
B737iA
c.2

اسرائيل جريمتنا!.

تأليف
ميلر بوروز
استاذ الدراسات التوراتية في
جامعة "ييل" بالولايات المتحدة

دار العلم للملايين
بيروت

32

كتب
طائرة

٤

الى اللاجئين

من

عرب فلسطين

الذين يحيون اليوم بلا أمل ولا مأوى ...

اقدم هذا الكتاب

الدكتور ميلر بورروز

الطبعة الاولى ١٩٥٢
الطبعة الثانية ١٩٥٦

كلمة المعرب

الدكتور ميلر بوروز ، مؤلف هذا الكتاب ، عَلَمٌ من اعلام الدراسات التوراتية وتاريخ الاديان في الولايات المتحدة ، تخرّج من جامعة ييل وشغل مناصب علمية طوال سنوات عدّة في ولايتي تاكساس وتنيسي الاميركيتين . ثم وفد الى الشرق العربي فقضى فيه فترةً صالحةً كان في بعضها استاذاً زائراً في جامعة بيروت الاميركية (١٩٣٠ - ١٩٣١) وكان في بعضها الآخر مديراً للمدرسة الاميركية للمباحث الشرقية في القدس (١٩٣١ - ١٩٣٢ ، ١٩٤٧ - ١٩٤٨) وبذلك تمت له معرفةٌ بأحوال البلاد العربية عامة ، وفلسطين خاصة ، ونشأت في قلبه محبةٌ للعرب تنضح بها كل صفحة من صفحات كتابه الفريد . وهو اليوم استاذ

اللاهوت التوراتي بجامعة ييل .

ورافق المؤلف مأساة فلسطين منذ نشأتها حتى تلك الايام المشؤومة التي اقرّت فيها هيئة الامم المتحدة مشروع التقسيم وما تلا ذلك من اضطرار العرب الى الهجرة الاجماعية عن ديارهم وموطن آبائهم واجدادهم وقيام الدولة اليهودية ونشوب الحرب ما بين الدول العربية واسرائيل . فأورثه ذلك كله ألماً مريراً ونقمةً جامحة على مقترفي هذه الجريمة الشنعاء التي عز نظيرها في التاريخ ، فكتب هذا الكتاب دفاعاً عن حق العرب الصريح وتفنيداً لمزاعم الصهاينة الذين ضللت دعايتهم الواسعة الرأي العام العالمي ، وكمّت أموالهم الطائلة افواه الصحف الاميركية وغيرها ، وإهابةً بالاميركيين ونصارى العالم الى التنبه من غفلتهم ، وإدراك مدى المظالم التي حلت بعرب فلسطين بسببٍ من السياسة الخرقاء التي قضت بان تؤيد الدول المسيحية والولايات المتحدة الاميركية على وجه التخصيص مطامع الصهيونيين في البلاد المقدسة .

وكان طبيعياً أن لا يتقبل الصهيونيون ، في اميركة

هذا الكتاب الذي يكشف سوءاتهم ، ويدحض مزاعمهم بقبول حسَن . فحاربوا المؤلف حرباً لا هوادة فيها . فلم يوفق الى ناشر ينشر له كتابه ، إلا بشقّ النفس ، يدلك على ذلك ما نصّ عليه في ختام الكلمة التي مهّد بها لكتابه من شكر للناشر الذي اقدم على طبع كتابه هذا ، على الرغم من أنه يعالج موضوعاً شائكاً يختلف فيه الناس أشد الاختلاف ... حتى إذا ظهر الكتاب حاولوا خنقه في مهده وعمدوا الى اتلاف آلاف كثيرة من نسخه حتى لا تصل الى ايدي القراء الاميركيين ...

وإنه لمما يسرّ دار العلم للملايين أن تقدم الى قرائها هذا السفر النفيس الذي يرتفع فيه ، لأول مرة في ما نعلم ، صوت اميركيّ نبيل دفاعاً عن حق العرب الفلسطينيين في بلادهم ، وتأييداً لوجهة النظر العربية في المشكلة الفلسطينية وذيولها . وإذا كان لنا ما نتمناه على الحكومات العربية ، في هذه المناسبة ، فهو ان تعمل على نشر هذا الكتاب ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، لا بين العرب انفسهم فحسب ، بل في ارجاء

الارض كلها وذلك بان تسعى لترجمته الى مختلف اللغات وتوزع اكبر كمية منه على الناس ، لتتمّ لهم فكرة صحيحة عن مأساة فلسطين ومناعة قوية ضد سموم الصهيونية وأضاليلها .

بيروت في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٢

أبو الريحان

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب نداء الى الاميركيين النصارى من اميركي نصراني يقض مضجعه ما حدث في فلسطين ، ويعتقد ان من واجب كل مسيحي ان يولي هذه الاحداث نصيباً من اهتمامه . فالمسألة الفلسطينية لم تُسوَّ حتى الآن ، وليس كل شيء حسناً في البلاد المقدسة . لقد حلت بأهل البلاد الأصليين مظالم فظيعة ، وليس من شك في ان مسؤولية ذلك تقع على جميع الفرقاء المعنيين ، ونحن منهم . ليس هذا فحسب ، بل لقد تعرضت مصالحنا الخاصة ، بوصفنا اميركيين وبوصفنا نصارى ، لخطر جسيم كما أصيبت مصالح اليهود انفسهم بضرر بالغ . ولا يزال في استطاعتنا ان نعمل شيئاً للتكفير عن هذه الاخطاء. ومن اجل ذلك كتبت فصول هذا الكتاب .

والحق ان هذا الكتاب ليس بحثاً جافاً يعرض لوجهات النظر المختلفة ، ويتجنب إصدار الحكم على المجرم . انه دعوة الى المحاكمة الاخلاقية والعمل الشخصي . وكل قاريء غير راغب في الاستماع الى صوت الضمير خليق بان لا يقع في هذا الكتاب على ما يرضيه . والواقع ان ما نحتاج اليه في هذه القضية ليس هو موضوعية المؤرخ الذي يدرس الماضي ، او العالم الذي يشرّح جثة من الجثث . انها قضية ذات أهمية حيوية بالنسبة الى مئات الآلاف من الاحياء ، قضية يتعين على كل من يُعنى بالحق والباطل ان يتخذ منها موقفاً واضحاً ، ويحاول ان يعمل شيئاً . وانما سأسعى ههنا الى توضيح المشكلة بابراز وجهها الأخلاقي الاساسي واخضاع جميع الاعتبارات الاخرى له .

وليس من ريب في ان للمسألة وجهين . من اجل ذلك ينبغي للباحث ان يتحلى بحسن التمييز وبالانصاف . ولكن الانصاف شيء غير الحياد . فانه حين يكون احد الوجهين حقاً والآخر باطلاً فعندئذ يكون الحياد غير عادل .

وفي قضية فلسطين وامثالها من القضايا التي يكثر فيها الخلاف لا يكون من اليسير دائماً تبيّن وجه الحق والصواب . فقد تراكمت الاخطاء بعضها فوق بعض وحجبت سحب العاطفة الحقائق الواقعية ، ولعبت الدعاية البارعة دورها السيء في هذه المأساة الانسانية الموجعة .

غير اننا لا نستطيع ، في المجتمعات الديموقراطية ، ان نُغفل جانب البحث الحر الصريح في القضايا التي يكثر اختلاف الناس فيها . يجب ان نكشف جميع اوراقنا . لان الديموقراطية لا تستطيع ان تعيش اذا ما سُمح للدعاية العاطفية ان تعوق المناقشة المخلصة المنصفة ، او ان تمنعنا من السعي في سبيل العدالة . وهكذا يتعين على شخص ما ان ينبري لغربلة الحقيقة وبسطها للناس في قوة وجلاء . وسواء أأدت هذه المحاولة الى نتيجة ما ام لم تؤدّ ، فانه واجب محتوم على احد المسيحيين القيام به .

ولسوف احاول ، في هذا الكتاب ، ان انصف الفريقين جميعاً . ولما كنت أؤمن اشد الايمان ان الصهيونية مخطئة في الاساس والى حد فاجع ، فسأحاول

ان اعبر عن معتقداتي بطريقة تجعل اصدقائي من اليهود – الذين احترمهم ولكني اختلف معهم اختلافاً كبيراً – يحسّون اني مخلص تدفعني الى كتابة هـذه الفصول دوافع وجيهة .

ولكي يعرف القاريء الى أين سأمضي به في هـذا الكتاب يحسن بي ان افصّل بعض الشيء المعاني الاساسية التي نصصت عليها في الفقرة الاولى من هذه المقدمة .

لقد قامت في جزء من بلد صغير فقير دولة يهودية جـديدة نشيطة تواجـه مشكلات مخيفة من الهجرة والاستيعاب والاسكان والاستقرار الاقتصادي ، والتطور والدفاع . وفلسطين بلد كان آهلاً بالسكان قبل مجيء اليهود ، وقد أبى سكانه قيام دولة يهودية في بلادهم . ثم كانت هنالك حرب ، هُزم فيها عرب فلسطين وانصارهم وها هم اهـل فلسطين الاصليون يعانون اليوم بؤساً وضنكاً ، وثلثاهم او اكثر من ثلثيهم لاجئون بلا مأوى ، او فقراء معدمون . وعلى الرغم من الفكرة السائدة في الولايات المتحدة فلا يزال الصلح الحقيقي الثابت بين اسرائيل والدول العربية امراً بعيد المنال .

وكل ذلك قد وقع من طريق إغفال حق الشعب الفلسطيني العربي في تقرير مصيره واختيار حكومته إغفالاً فاجعاً . وليس من ريب في ان كل محاولة الى تحديد المسؤولية في هـذه الفاجعة تقودنا الى الاستنتاج اننا جميعاً شركاء في الجريمة . اجل كلنا مسؤولون : الانكليز ، والامم المتحدة ، والولايات المتحدة ، ومسيحيو العالم ، والعرب ، واليهود . ولكن الانصاف يقتضينا ، على كل حال ، ان نقول ان شعب فلسطين العربي الذي تحمل القسط الاوفر من العذاب انما تحمل هذا العذاب من اجل شيء لم تكن له يد في حصوله ، منذ البدء .

وهذا كله يهمنا كمسيحيين ، لا بسبب من اي تعصب ديني ، بل لاننا مؤتمنون على قضية العدالة في كل مكان . ثم ان لنا ، بالاضافة الى ذلك ، مصالح حقيقية مشروعة اصابها كثير من الأذى نتيجـة لتقسيم الديار المقدسة وقيام دولة يهودية في قسم كبير منها . وما يقع في فلسطين يجب ان يهمنا بوصفنا مواطنين اميركيين ايضاً . فقد كان لدولتنا ضلع كبير في الظلم الذي حل بأهلها ،

وقد اصيبت مكانة الولايات المتحدة المعنوية بأعظم الضرر في بلاد الشرق الاوسط كلها ، كما اصيبت مصالحنا الستراتيجية والاقتصادية في تلك البقعة من العالم بأكبر الاذى .

ليس هذا فحسب ، بل ان مصالح الشعب اليهودي نفسها اصابها الاذى بسبب ما فعله هذا الشعب وفعلناه نحن . فقد اخذت القومية الدنيوية تتهدد قوة اليهودية الاخلاقية والروحية ، والقيت على كواهل اليهود في اميركة اعباء مالية هائلة ، وكاد ولاؤهم القومي يتعارض مع ولائهم العرقي ، واستثير الشعور المعادي لليهود في البلدان العربية وفي غيرها .

واذا لم يكن من سبيل الى الرجوع عما اقترف في فلسطين فهناك اشياء قليلة يجب ان تُعمل . يتعيّن علينا قبل كل شيء ، كأفراد مسيحيين وكمؤسسات كنسية ، ان نبذل بسخاء في سبيل الترفيه عن سكان فلسطين الاصليين البائسين ، واعادتهم الى ديارهم . يجب ان نطالب حكومتنا بالعمل على وضع حد للتوسع اليهودي على حساب العرب ، وبضمان المصالح المسيحية في فلسطين

ورفع المستوى الاقتصادي والثقافي في الشرق الاوسط كله . وسنواجه عاجلاً او آجلا ، وكلما تعجلنا ذلك كان احسن وافضل ، حقيقة لا يتطرق اليها الشك ، وهي ان فلسطين لم تحل المشكلة اليهودية ، ولن تحلها ابداً .

١ . دولة اسرائيل

كانت فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى ، وطوال اربعة قرون من الزمان ، جزءاً من الامـبراطورية العثمانيـة . وبعد الحرب انتدبت عصبـة الأمم بريطانية العظمى لادارة فلسطين ، وضمّنت صك الانتداب وعد بلفور الذي اعلنته الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧ آخذةً على نفسها فيه العمل على إقامـة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . وفي المدة الواقعة بين الحربـين العالميتـين الاولى والثانية نشط الصهيونيون لانشاء المستعمرات ، وحققت البلاد تقدماً ملحوظاً بالنسبة الى الاحوال التي كانت سائدة في ظل الحكم التركي . ولكن الصهاينة اخفقوا في إقـامة علاقات ودية وتعاونية مع العرب ، سكان البلاد الاصليين ، في حـين شعر اليهود

والعرب جميعاً بان بريطانية لم تحقق وعودها نحـوهم . وقبيل انـدلاع الحرب العالمية الثانية اجتاحت البـلاد موجاتٌ متعاقبة من الاضطراب وأعمال العنف .

وفي أثناء الحرب أوقف ا[illegible]ل العنـ[illegible] ضد الانكليز ، في حين لجـأ اليهود ، بعد أن فرض الانكلـيز قيوداً على الهجرة ، الى أساليب الأرهاب . وعقب انتهاء الحرب ساءت الاحوال الى درجـة حملت بريطانية على ان تُحيـل المشكلة الفلسطينية الى الامم المتحدة . فعينت هذه لجنة خاصة لفلسطين اقـترحت تقسيم البلاد الى دولتين يهودية وعربية ، على ان تؤلف القـدس وبيت لحـم منطقة دولية ، وأقرّت الجمعيـة العمومية هذه التوصيات في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ . وهنا احجمت بريطانية عن تنفيذ توصيات اللجنة التي لم تحظ بموافقة ايّ من العرب واليهود فاعلنت انها ستتخلى عن الانتداب في ١٥ نوار ١٩٤٨ واخذت تسحب قواتها من البلاد . ورفض العرب الاعـتراف بتقسيم بلادهم ، ولم يقيموا دولة عربية مستقلة . وعينت الأمم المتحدة لجنة جاء في تقريرهـا انها لا تستطيع فرض مشروع

التقسيم . وفي ١٤ نوار أُعلنت دولة اسرائيل .

وبعد ذلك وقعت الحربُ بين الدول العربية واسرائيل . واعترفت بالدولة الجديدة بلدان كثيرة كنا نحن في طليعتها . وفي آذار ١٩٤٩ وافق مجلس الأمن على انضمام اسرائيل الى الامم المتحدة ، وفي ١١ نوار وافقت الجمعية العمومية على ذلك أيضاً .

وعلى أية حالٍ فان هذه الدولة الصغيرة تعاني اليوم متاعب كثيرة . انها اشبه بطفل نما بسرعة غير طبيعية حتى لقد ضاقت عليه ثيابه . فقبل الحرب العالمية الاولى كان في فلسطين ٨٥ الف يهودي ليس غير ، فازداد هذا العدد حتى بلغ ١٧٥ الفاً في ١٩٣١ ، واكثر من ستمائة الف في اواخر ١٩٤٦ ؛ وبعد انشاء دولة اسرائيل بدأ المهاجرون اليهود يصبون على البلاد بنسبة متسارعة . فازداد عدد السكان بنسبة عشرة آلاف نسمة في الشهر الواحد في الاشهر الباقية من ١٩٤٨ ، وفي اثناء السنة الاولى من إنشاء الدولة اليهودية دخل فلسطين ٢٢٠ الف مهاجر جديد . وتوقع الصهاينة ان يستقبلوا ٢٥٠ الفاً على الاقل ، خلال سنة ١٩٤٩ و ٢٥٠ الفاً

آخرين خلال كل من السنتين التاليتين . وهذا خليق بأن يضاعف سكان فلسطين اليهود ، او يزيد ، بالنسبة الى ما كانوا عليه سنة ١٩٤٧ ! والواقع ان إسرائيل وضعت خطتها ، بادىء الامر ، لاستقبال مليون مهاجر في عشر سنين ، اما اليوم فمن المعتقد ان تحقق ذلك في مدى اربع سنوات . وقد يُظهر المستقبل ان هذه التقديرات مغالىً فيها ، فقد أُعلن في ١٤ تموز ١٩٤٩ ان نسبة الهجرة هبطت خمسين بالمائة ما بين آذار وحزيران ، وانه بينما قدم الى البلاد ١٥٠ الف مهاجر في النصف الاول من ١٩٤٩ فقد لا يفدُ اليها الا نصف هذا العدد في الاشهر الباقية من العام . وحتى في هذه الحال فان مشكلة استيعاب البلاد لهؤلاء المهاجرين جديرة بان تكون هائلة .

ويجب ان نذكر ان هذا كله قد جرى في جزء من بلد صغير . فالحق ان مساحة فلسطين لم تكن تتجاوز ، في عهد الانتداب البريطاني ، ١٠٬٠٠٠ ميل الا قليلاً . وهي مساحة اصغر من مساحة بلجيكا ، واقل من ربع مساحة غواتيمالا .

وأعطى مشروع التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة في تشرين الثاني ١٩٤٧ اكثر من نصف البلاد الى اقل من نصف السكان يملكون اقلّ من عشر الارض ...

وأياً ما كان فاسرائيل اليوم تحتل اكثر مما منحها اياه قرار الأمم المتحدة . فقد استولت قواتها على الجليل الغربي ، واجزاء من السهل الساحلي ، والقسم الاكبر من القدس ، و « ممراً » مثلثاً يربطها بالسهل الساحلي ، ومناطق واسعة في الجنوب ، على الرغم من ان هذه الأقاليم هي — حسب قرار التقسيم — من حق العرب ، او تابعة لمنطقة القدس الدولية . وهكذا امست الاراضي التي تحتلها دولة اسرائيل ، في فلسطين ، ثلاثة ارباع مساحة البلاد .

والواقع ان تدفق المهاجرين الجدد على هذه الدولة الصغيرة قد خلق لها مشكلة حادة . وليس مردّ هذه المشكلة الى ضيق المساحة ولكن الى طبيعة البلاد وقدرتها على احتمال مثل هذه النسبة الكثيفة من السكان . ففلسطين ليست صغيرة وحسب ؛ انها فقيرة جداً في مواردها الطبيعية ايضاً . وهنا يزعم الصهاينة انهم زادوا

مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب من طريق تجفيف المستنقعات وإحياء الاراضي الرملية . وهم يذهبون الى ان في استطاعتهم مواصلة جهودهم في هذه السبيل . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن هناك حدوداً لما يمكن ان يُعمل . وهذه الجهود لا تقتضي ، على كل حال ، اموالاً لا حدّ لها فحسب ، بل تحتاج لكي تؤتي ثمراتها الى وقت طويل ، والى أمن وسلام ايضاً .

ولا جدال في ان نفقات هذه الدولة الجديدة الصغيرة هي اليوم نفقات باهظة هائلة . وإن المرء ليتساءل ، وهو يقرأ ارقام المبالغ المنفقة فيها ، ما اذا كان يقرأ أنباء اسرائيل ام أنباء الولايات المتحدة ... ففي ٢٤ آب سنة ١٩٤٨ أعلن بن غوريون امام المؤتمر الصهيوني العام ان الحرب مع العرب كانت تكلّف اسرائيل اكثر من مئة الف جنيه استرليني في اليوم . وفي ذلك الحين قُدّرت نفقات إسكان المهاجرين بنحو ستة عشر مليون دولار شهرياً ، عدا ثمن الارض . وهذا المبلغ يساوي ضعف النفقات العادية لحكومة

فلسطين كلها في عهد الانتداب البريطاني . وقد قُدّرت نفقات حكومة اسرائيل الاجمالية ، بما فيها الدفاع ، بخمسين مليون دولار شهرياً ...

وبارتفاع نسبة الهجرة الى الدولة الجديدة تعاظمت نفقاتها وازدادت حاجتها الى المال . ففي تشرين الاول قالت الوكالة اليهودية إنها في حاجة الى ٦٤ مليون دولار لبناء ٢٧ الف منزل يتألف كلّ منها من غرفتين . وكان يُعتقد آنذاك ان ١٢٠ الف مهاجر سيفدون الى اسرائيل في الاشهر الاثني عشر القادمة . وفي تشرين الثاني اعلن رئيس هيئة الاغاثة اليهودية المتحدة ان نفقات كلّ من هذه المنازل بلغت نحواً من الفي دولار وان تدفق المهاجرين الى اسرائيل بنسبة ١٢٥ الف مهاجر في السنة لم يعد مشروعاً على الورق ، بل حقيقة واقعة . ومعنى ذلك أن هذا السيل يكلف الدولة الجديدة ٧٥٠ مليون دولار في السنة .

وكان لهذا كله اثره السيء في الحياة الاقتصادية في اسرائيل . وواضح أن الحالة هناك غدت حرجة الى حدّ بعيد . ففي ١٩ نيسان ١٩٤٩ قال الحاخام هرتزوغ

قبيل سفره من تل ابيب إلى اميركا لمساعدة هيئة الاغاثة اليهودية في جمع الاعانات ليهود فلسطين : « أودُّ أن أُفهم يهود اميركة خطورة الازمة التي نعانيها . »

ومن اخطر المشكلات التي تعانيها اسرائيل مشكلة الأسكان . وليس من شك في ان كثيراً من المهاجرين الجدُد أُنزلوا في البيوت التي خلّفها اللاجئون العرب وراءهم ، وفي المساكن الجديدة التى بُنيت على انقاض القرى العربية المهدّمة ، ولكن قسماً كبيراً منهم كان لا بدّ من ايوائهم في المخيمات ، ومراكز منظمات الشباب ، والمزارع الجماعية ، او في بيوت الاقارب والاصدقاء . وفي ١٨ آذار ١٩٤٩ أُعلن ان الوكالة اليهودية كانت تُنفق اكثر من مليون دولار شهرياً على نحو اربعين الف مهاجر جديد يقيمون في ٢١ مخيماً من مخيمات اللاجئين . وورد في إعلان نشرته هيئة الاغاثة اليهودية على صفحة كاملة من « النيويورك تايمس » ، في ٢٦ نيسان ، ان ٦٠ الف مهاجر الى اسرائيل يعيشون في الارض العراء ، وأن ٢٠ الفاً منهم لا خيام تغطي رؤوسهم ..

وفي ١٤ نيسان قال وايزمـــان ، في نيويورك ، « إننا نستقبل المهاجرين من غير قيد . إن علينا أن نقوم بذلك ، فليس لنـا في الأمر خيار . ان علينـا ان نبذل اقصى الجهد لاخراجهم من اوروبة وايوائهم في بلادنا . ومع ذلك فقد يأتي يوم تضطر فيه اسرائيـل الى تقييد الهجرة اليها ، بل لقد دُرست هـذه الفكرة فعلاً . وفي ٢٦ نيسان أنكر بن غوريون عزم الحكومة على تحديد الهجرة ، ولكنه سلم بان ٥٣ الف قـادم جديد كانوا يعيشون « في احوال من الازدحام المريع ». واضاف قائلاً إن غلاء المعيشة كان « يقضي على الجهود في سبيل تشييد المنازل للوافدين الجدد . » وفي اليوم التالي صرّح كبير حاخامي اسرائيل ، لدى وصوله الى نيويورك ، بان حكومة تل ابيب قد تُضطر الى تحديد الهجرة إذا لم تعالج مشكلة الاسكان معالجة عاجلة .

وواضحٌ ان المساكن ليست كل ما يحتاج اليـــه القادمون الجدد . انهم في حاجة الى أعمال ايضاً . وفي أواخر نيسان شهدت اسرائيل مظاهرات قام بها مئات من الجنود السابقين ، ومن المهاجرين الجدد العاطلين عن

العمل . ولمعالجة هذه المشكلة اعلنت الحكومة عـن برنامج ضخم للبناء . حتى اذا اطـل شهر نوار امست الازمة الاقتصادية في اسرائيل حادة جـداً . كانت الكثرة العظمى من المئتي الف مهاجر الوافدين حديثاً عمالاً تنقصهم البراعة ؛ وكانت الدولة قد سرّحت آلافاً من الجنود ، وكانت البطالة منتشرة بين عمال المزارع الحمضية في نهاية الموسم .

فما هي الموارد التي تملكها اسرائيل ، والتي تستطيع ان تواجه هذه الحاجات الملحة بواسطتها ؟ انهـا تملك جميع الاراضي الخصبة في فلسطين ، تقريباً ، ولكنّ نصف المناطق التي تحتلها لا تزال صحارى قاحلة . وقد تكون هذه المناطق قابلة للتطور والاستنبات ولكن ذلك يكلف غالياً ، ولا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها . والواقع ان الآبار الارتوازية قد ساعدت على سد الحاجة الى المياه في مناطق مختلفة ، وان علماء طبقات الارض الاسرائيليين قد درسوا إمكانيات البلاد من هذه الناحية ، ولكن المشاريع الهادفة الى إرواء صحراء النقب تقتضي من المياه مقادير لا يمكن تأمينها بهذه الوسيلة .

ولو قد كان وادي الاردن خاضعاً لسلطان اسرائيل او كانت العلاقات بين هذه الدولة وجارتها الاردنية ودّية اذن لكان في امكان اليهود ان يمدوا مشاريعهم الصناعية بقوى مائية ضخمة . ان بترول العراق ، الذي كان يعبر الصحراء ، من قبل ، ليصب في حيفا ، خليقٌ بأن يقدّم لاسرائيل مصدراً من مصادر القوة اسهل وارخص ، ولكن هذا يقتضي توقيع صلحٍ مع الدول العربية . وقد يُكتشف البترول في النقب ، ولكن ذلك لا يزال الى اليوم مجرد امكانية ليس غير . وهكذا فلا مفرّ من ان تظل اموال اليهود الاميركيين هي مورد اسرائيل الاقتصادي الاول ، طوال مدةٍ غير قصيرة من الزمان .

والتطور الاقتصادي يقتضي الى جانب ذلك موادّ خاماً واسواقاً . والواقع ان المواد الخام اللازمة للكثرة العظمى من الصناعات التي يمكن ان تنشأ في اسرائيل يجب ان تستورد من الخارج . وانما يستثنى من ذلك ، في الدرجة الاولى ، بوتاس البحر الميت . اما مشكلة الاسواق فتنطوي على عاملين : السلع

ونفقات الانتاج . فعلى مصنوعات اسرائيل ان تنافس مصنوعات تلك البلدان القادرة على الانتاج بمقادير اوفر ، واسعار ارخص . وقد ادرك حاييم وايزمان هذه الحقيقة فاقترح ان تنصبّ جهود اسرائيل الصناعية على انتاج البضائع التي يلعب فيها عامل النوعية دوراً كبيراً ، كالساعات السويسرية مثلاً ، ولكن اسرائيل ليست مؤهلة في الوقت الحاضر لانتاج بضائع تتميّز بجودة فائقة للعادة . ويجب ان لا ننسى في هذا المقام ان قلةً صغيرة من اليهود الذين اقبلوا على اسرائيل من اوروبة تتمتع بمرانٍ دقيق او براعة تخصصية . واليهود الذين هربوا من اوروبة الوسطى الى فلسطين في الايام الاولى من الحكم النازي كانوا في الغالب ارباب مهن او تجاراً ذوي رساميل متواضعة . ومن هنا نشأت الافادة من هذه العناصر المدينية المترفة في العمل الزراعي الناشط في المستعمرات اليهودية . اما المهاجرون الذين جيء بهم من معسكرات الاعتقال فلا يملكون لا رساميل ولا براعاتٍ عملية خاصة .

ومشكلة تمثل المهاجرين أو استيعابهم ليست اقتصادية

صرفة . فكثير ممن وفدوا على اسرائيل من معسكرات الاعتقال الاوروبية هم في حال سيئة ، من الناحيتين الاخلاقية والجسدية . وقد صرح رئيس المؤتمر الدولي للانعاش اليهودي الاجتماعي في حزيران ١٩٤٩ «أن كثيراً من اللاجئين في اسرائيل يعانون اليوم قلقاً سيكولوجياً لانهم أقبلوا على اسرائيل ، بعد ان قضوا سنوات في معسكرات الاعتقال ، وهم يتوقعون ان يجدوها أرضاً تدرّ لبناً وعسلاً ، فاذا بهم لا يجدون منزلاً يسكنونه ، وعملاً يعملونه . »

ومما جعل تمثّل الوافدين الجُدد اشد صعوبة كونهم أقبلوا من بيئات مختلفة لكل منها مفاهيمها الاجتماعية ونظراتها الخاصة في الحياة . ولعل أصعب هذه العناصر تمثلاً تلك التي جاءت من جنوبي الجزيرة العربية وشمالي افريقية . والواقع ان المخاوف تساور بعض الجهات الصهيونية من ارتفاع نسبة اليهود الشرقيين بين مجموعة من السكان يتألف معظمها من يهود اوروبة واميركة ، وما قد يخلقه هذا الارتفاع من مشكلات سياسية . فمن أصل المئتين والخمسين الف مهاجر المتوقع دخولهم إلى البلاد في سنة ١٩٤٩ يقال ان ٤٥ الفاً سيأتون من

البلاد العربية و ٢٥ الفاً من بعض البلدان الشرقية وبذلك تبلغ نسبتهم نحو ٢٨ بالمئة من مجموع المهاجرين . ولا ريب في ان تقاليد اليهود الشرقيين وطريقتهم في العيش تختلف اختلافاً كبيراً عن تقاليد اليهود الاوروبيين والاميركيين وطريقتهم في العيش . وقد جاء في بعض التقارير انه عندما درس الكنيست مسألة رواتب موظفي الحكومة والتعويضات التي تدفع لزوجاتهم وأولادهم وقف أحد الاعضاء اليمنيي الاصل وتساءل ما اذا كان التعويض الخاص بالزوجات يُدفع عن زوجة واحدة فقط أم انه يتعدد بتعدد الزوجات . وقد قرر المجلس اخيراً ان يُصار الى دفع التعويض للموظفين على أساس عدد الزوجات ...

وعلى الرغم من هذه المشكلات كلها لا تزال دولة اسرائيل جادةً في استقدام مهاجرين جدد من اميركة . فلماذا يتطلب رجال هذه الدولة المزيد من المهاجرين ؟ انهم يتبجحون بالسعي إلى تأمين مأوى لجميع يهود العالم الراغبين في المجيء إلى فلسطين . ولكن حاجة اللاجئين اليهود من اوروبة لم تعد تتطلب مثل هذه الهجرة

الضخمة لانه لم يبق في معسكرات الاعتقال في اوروبة عددٌ من اليهود يوازي ذلك الذي يُتوقّع دخوله إلى اسرائيل هذا العام . ثم إن اليد العاملة ضرورية ، من غير شك ، لتحقيق المشروعات الخاصة بالنقب ، ولكن الحاجة الى إحياء النقب ناشئة هي نفسُها عن الحاجة الى إيواء الفائض من السكان . والواقع ان مفتاح القضية كلها يتلخص في كلمة واحدة ، هي : الدفاع . ففي الخطاب الذي افتتح به بن غوريون الحملة الانتخابية في تشرين الاول اكد على حاجة البلاد الى هجرة واسعة تضمن لاسرائيل سلامتها القومية ...

ومهما يكن من أمر فان كثيراً من السكان الجدد يُحشرون اليوم في المناطق المنتزعة من العرب ، بالاضافة إلى الاراضي التي خُصّت بها اسرائيل في قرار التقسيم ١٩٤٧ . وقد حُوّلت المواقع العسكرية الأمامية الى معسكرات محصّنة تشكل ما يعرف بخطّ وايزمان . كذلك يقال ان المنطقة الساحلية ، والنقب ، والجليل تحصّن بالطريقة نفسها . وفي ذلك ما يفسر ، جزئياً ، حاجة اسرائيل إلى أعدادٍ متزايدة من المهاجرين .

ذلك أن السلطات الاسرائيلية المسؤولة تخشى ان يسترد العرب ما فقدوه من أراضٍ ، وترى في إنشاء المستعمرات في النقب والجليل وحشد المهاجرين اليهود فيها وقايةً للدولة الجديدة من هذا الخطر . وقد عبَّر وايزمان عن خوف اسرائيل من الاعتداء الخارجي في بعض تصريحاته . وبدون هذا التفسير تبدو رغبة اسرائيل في المزيد من المهاجرين للعمل في خدمة الارض لكي تتسع لعدد أكبر من المهاجرين أشبه ما تكون بذلك المزارع الذي تزعُم الاسطورة انه كان يرغب في شراء اراض اكثر ، لينتج مقادير من الحنطة اكبر ، ليطعم عدداً من الخنازير أوفر ، وبذلك تتعاظم ثروته تعاظماً يمكنه من شراء اراض جديدة ...!

والحق ان المرء مضطرٌ إلى أن يتساءَل : اليس ضغط السكان هذا خليقاً بأن يؤدي ، عاجلاً ام آجلاً ، إلى توسع اقليمي جديد من جانب اسرائيل ؟ اليست الرغبة في التوسع الاقليمي أحد الدوافع إلى فتح ابواب الهجرة على نطاق واسع ؟ إن هناك ، في اسرائيل ، لأحزاباً تطالب بضرورة الاستيلاء على جميع فلسطين

وشرقي الاردن على الرغم من قبول الصهيونيين لمشروع التقسيم بصورة رسمية . ولا ريب في ان زعماء الحكومة الحاضرة ينكرون ان تكون لهم مطامع اقليمية جديدة ، ولكن الخلاف بين المتطرفين والمعتدلين يبدو في بعض الاحيان خلافاً في الاساليب وفي تعيين الوقت المناسب . وسواء شاء زعماء الصهاينة ام أبوا ، فلا بد لاسرائيل من أن تختار ، في وقت قريب ، بين واحد من أمرين : إما تقييد الهجرة ، وإما التوسع الاقليمي ...

وفي الوقت نفسه تواجه اسرائيل مشكلات داخلية ذات طبيعة سياسية . فهناك شكاوى من سيطرة الجيش على الحكومة . وتعدّد الاحزاب السياسية يشكل في ذاته مشكلة اخرى . ففي هذه الدولة الجديدة ينزع يهود كل بلد من البلدان المختلفة التي تدفق منها المهاجرون الى ان يؤلفوا حزباً سياسياً مستقلا . وقد خاض معركة الانتخابات في كانون الثاني ١٩٤٩ نحوٌ من اثني عشر حزباً . ليس هذا فحسب . بل إن هناك جماعات تمثل ايديولوجيات مختلفة ، وثقافات قومية

متباينة . كما ان هناك احزاباً دينية مستقلة . وأقوى الأحزاب في اسرائيل حزبا العمال الكبيران . فأما « الماباي » ، أو حزب العمال الفلسطيني ، فيساريّ معتدل . إنه يدعو الى التعاون مع الولايات المتحدة والى اتخاذ موقف الحياد في الصراع الناشب بين الشرق والغرب . ويرئس هذا الحزب رئيس وزراء اسرائيل دافيد بن غوريون . ويأتي بعد هذا الحزب ، من حيث القوة والنفوذ ، حزب « المابام » أو حزب اتحاد العمال ، المتطرّف في يساريته والذي يميل ميلاً واضحاً نحو الاتحاد السوفياتي . وهناك حزبان دينيان بارزان : أحدهما معتدل يدعى « ميزراتشي » ؛ والآخر متطرّف يدعى « آغودات اسرائيل » وكان من قبلُ غير صهيوني .

والعلاقة بين الدين والدولة دقيقة جداً في اسرائيل بسببٍ من الصلة الوثيقة بين الدين والقومية في التقاليد اليهودية : وقد عين وازيمان موقفه من هذه القضية تعييناً واضحاً حين قال في مذكراته : « ان اسرائيل لا تستطيع ان تعيد عقارب الساعة الى الوراء فتجعل الدين المبدأ

الأصلي في سلوك الدولة واتجاهاتها . ان الدين يجب ان يُبعد الى الكنيس والى بيوت الأسر التي ترغب فيه . يجب ان يحتل مركزاً خاصاً في المدارس . ولكن لا يجوز ان يفرض سلطانه على وزارات الدولة . » وفي انتخابات كانون الثاني ١٩٤٩ تعاونت الاحزاب الدينية واكتسبت عدداً من المقاعد يجعل لها نفوذاً غير قليل في الحكومة . وحتى بين الجماعات الدينية في اسرائيل يقوم اختلاف في وجهات النظر حول هذه المسألة : الى اي حدّ ينبغي للتشريع الديني التقليدي ان يسيطر على قوانين الدولة الجديدة ؟ ...

وقد تجلى هذا الاختلاف بين مواطني اسرائيل ، في موضوع « السبت » . فقد كانت تنشأ ، قبل انتهاء الانتداب البريطاني ، مصاعب عديدة كلما وصلت السفن التي تُقل المهاجرين الى فلسطين ايام السبت ، اذ كان الركاب المتعصبون يرفضون النزول الى البر في ذلك النهار . ومعنى هذا انه كان يتعين على السفن ان تمكث في ميناء حيفا طوال الليل متكبدة من اجل ذلك نفقات اضافية . وفي نيسان سنة ١٩٤٩ حرمت حكومة

اسرائيل نزول المسافرين الى ميناء حيفا ايام السبت . حتى اذا عارضت في ذلك الاحزاب اليسارية في الكنيست اجاب وزير الهجرة — وهو عضو في احد الاحزاب الدينية — بقوله ان يوم السبت هو يوم العطلة الرسمي في اسرائيل ، وعلى شركات البواخر ان تنظم برامجها بحيث صل سفنها الى شواطيء اسرائيل في سائر ايام الاسبوع .

وكثيرون من مواطني اسرائيل أبدوا معارضتهم لاصطناع قوة الدولة في سبيل فرض القانون الديني على الناس . انهم يعتبرون كل محاولة الى تقوية القانون الديني ضرباً من « الخلط التاريخي » anachronism ، ويؤمنون بان الدولة لن تعيش ، إذا ما نجحت هذه المحاولات . اما الجماعات الدينية فتقول ان واجب الحكومة ان تراعي حرمة « السبت » ، فتعطل السكك الحديدية التي تملكها الدولة ، والسيارات العامة العاملة لحساب الدولة ، وتغلق ابواب المكاتب الخاصة بالهجرة والجمارك في ايام السبت . وتذهب هذه الجماعات ، فوق ذلك ، الى القول بانه ليس من الضروري تحريم بيع الأطعمة « غير الطاهرة » (غير الكاشير) وشرائها ، ولكن من واجب الحكومة ان

لا تستعملها في المؤسسات الرسمية ، وان لا تمنح النقد النادر لاستيرادها .

وفي حزيران جاء من القدس أن جماعة من المتطرفين في الدين ، تدعى « حفّاظ المدينة » قد لجأت الى استعمال العنف ضدّ اليهود الذين لا يراعون حرمة السبت . وقد قامت هذه الجماعة بمظاهرات صاخبة هاجمت فيها المسارح ودور السينما التي تفتح ابوابها قبل انقضاء « السبت » عند الغروب ، فأوذي من جراء ذلك عديدون ولحق الضرر بممتلكات كثيرة .

٣ . المظالم التي نزلت بعرب فلسطين

إن البلاد الصغيرة التي أنشئت فيها الدولة اليهودية الجديدة كانت آهلة بالسكان قبل ان تبدأ الهجرة الصهيونية إليها . إنها لم تكن مجاهلَ بكراً لا يقطنها غير نفرٍ قليل من المتوحشين الهائمين على وجوههم ، أو « وطناً ، من غير شعب ، لشعبٍ من غير وطن » كما كان الصهاينة الأولون ينعتونها . وإنما كان عدد سكان فلسطين العرب ، في العهد العثماني ، اقلّ مما انتهى اليه في ظل الانتداب البريطاني . وفي حين كان عدد اليهود في فلسطين ينمو من طريق الهجرة ، كان عدد السكان العرب ينمو من طريق التكاثر الطبيعي . فقبل الحرب العالمية الاولى كانت نسبة المواليد ، عند عرب فلسطين تعدل نسبة الوفيات تقريباً . حتى إذا كان عهد الانتداب

انخفضت نسبة الوفيات انخفاضاً كبيراً ، مما أدى الى تزايد السكان تزايداً طبيعياً يُعتقد أنه مفقود النظير في العالم كله . وحتى فيما قبل عهد الانتداب ، أو في سنة ١٩١٤ على وجه التخصيص ، كان ثمة ٦٩٠،٠٠٠ عربيّ في فلسطين .

وهؤلاء العرب لم يكونوا بدواً رحّلاً ، والواقع ان ابرز اسباب اللامبالاة التي يبديها الاميركيون تجاه اضطرار الفلسطينيين العرب الى الجلاء عن ديارهم ، ذلك الاعتقاد الشائع بانهم لم يكونوا غير قلةٍ من البدو تعيش في الخيام . وليس ادل على ذلك من ان رجلاً حسن الاطلاع كمستر صمنر ويلز يتكشف عن سوء فهم عجيب من هذه الناحية ، إذ يقول ان اليهود والنصارى كانوا يؤلفون نحو ربع سكان فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى -- وكان مجموع السكان آنذاك اقلّ من سبعمائة الف نسمة -- وان سائر السكان كانوا من المسلمين الذين « تتألف كثرتهم من البدو المترحّلين » . ولنوضح قبل كل شيء أن نصارى فلسطين هم عرب ، وقد قاوموا الصهيونية ؛ وإذن فقد كان الحق يقضي بأن يُحصَوا

مع المسلمين لا مع اليهود . ولا يقلّ عن ذلك تضليلاً وإمعاناً في الخطأ ، القول بان كثرة المسلمين الفلسطينيين كانت من البدو . فالواقع ان معظم العرب الفلسطينيين مسلمين ومسيحيين ، كانوا زراعاً يعيشون في قرى ثابتة مستقرّة . أما الباقون فكانوا اصحاب صنائع وتجاراً وارباب حرفٍ يعيشون في المدن الرئيسية . أما البدو القلائل الذين كانوا يفدون الى البلاد من الصحراء القائمة جنوبي فلسطين وغربها ثم يخرجون منها فأغلب الظن انهم لم يُدخَلوا ، عهد ذاك ، في التقدير العام للسكان . وإنما تذكرني ملاحظة صمنر ويلز هذه بذلك اليهودي الذي اعترف بأنه يستشعر الخجل بسبب من انه جاء الى فلسطين وهو يحسب ان المستعمرات اليهودية كانت هي الأماكن الوحيدة الآهلة بالسكان في الديار المقدسة . حتى إذا وصل اليها وجدَ -- وسطَ غمرة من الذهول والدهش -- ان البلاد تغصّ بقرى عربية لم يكن لها ذكر في الخرائط التي يملكها .

والواقع أن أسلاف كثير من عرب فلسطين عاشوا في القرى نفسها طوال قرون عديدة ، وإن لم يكن ثمة ريب في ان جماعات اخرى من العرب كانت تفد

الى البلاد في ذلك الزمن ايضاً . وحتى في العهد التركي بلغ عدد سكان فلسطين – فيما عدا الصحراء الجنوبية – نحواً من عدد سكان ولاية ميشيغان . وفي سنة ١٩٤٧ تضاعف هذا العدد او كاد ، بالغاً نحو مليون وثلاثمائة الف نسمة .

وفيما كان سكان الدولة اليهودية ، حسبما خططها مشروع التقسيم سنة ١٩٤٧ ، يتألفون من ٦٠ ٪ من اليهود و ٤٠ ٪ من العرب ، فإن الدولة العربية كان مقدراً لها ان تتألف من ٩٩ ٪ من العرب و ١ ٪ من اليهود : وبكلمة اخرى : كان مفروضاً ان تنتظم هذه الدولة عشرة آلاف يهودي وثمانمائة الف عربي . وفي المناطق التي ضمتها اسرائيل اليها من طريق الفتح اكثرية عربية كبيرة ، ينتثر معظمها اليوم في البلدان العربية الاخرى ، ولكن قسماً كبيراً منها يحتشد في ذلك الجزء الاصغر من فلسطين الذي لا يزال في ايدي العرب . والواقع ان من العسير في مثل الاحوال السائدة اليوم ان يقع الباحث على ارقام دقيقة ، ولكن بعض التقديرات الموثوق بها تشير الى ان اكثر

من مليون عربي يعيشون اليوم في مساحة من الارض لا تزيد على ٢٫٥٠٠ ميل مربع ، اي بمعدل ٤٠٠ نسمة لكل ميل مربع على الاقل ...

وبصرف النظر عن عدد سكان فلسطين وكثافتهم فان العرب الفلسطينيين ما كانوا يريدون ان تقام دولة يهودية في بلادهم . وقد قاوموا الهجرة اليهودية والاحتلال الصهيوني طوال جيل من الزمان مقاومة عنيدة ، اصطنعت خلالها اساليب عاقلة حيناً ، رديئة حيناً آخر . وكونهم قد التجأوا الى الاساليب الرديئة في المقاومة الى جانب التجائهم الى الاساليب العاقلة لا ينفي انهم قاوموا – وكان لهم ملء الحق في ان يقاوموا – الحركة الصهيونية وممثليها .

ويحسن بي أن أنص ، ههنا ، على ان العداء بين العرب واليهود في فلسطين ليس راجعاً الى تعصب ديني أو عرقي . انه في الدرجة الاولى صراع اقتصادي وسياسي وفي الدرجة الثانية صراع ثقافي وليس عِرقياً او دينياً بحال من الاحوال . وكره العرب لليهود ، هذا الكره الحديث نسبياً والذي امسى اليوم عميق الجذور لن

يكون في مقدور الاجيال المتطاولة استئصاله ، انما يرجع الى الخوف الذي تثيره في نفوس العرب غرابة المستعمرين الصهيونيين وبراعتهم ونزعتهم ، فوق كل شيء ، الى العدوان . وقد حدّثني عربي نصراني من اهل القدس ، يوماً ، فقال في مثل ارتباك الاطفال : « انا لا افهم لغتهم ؛ انا لا افهم اساليبهم ؛ انهم يجعلونني اشعر وكأنني غريب عن وطني وبلادي . »

وكثيرٌ من الاضطرابات التي حدثت في العشر السنوات الاولى من عهد الانتداب لا شك كانت نتيجة الذعر الذي استولى على العرب بعد ان كشف اليهود عن رغبتهم في تهويد البلاد . وقد آمن كثير من افراد الشعب ايماناً راسخاً بان اليهود سيذبحون جميع العرب ذبح النعاج حالما تتم لهم كثرة عدديةٌ ما . وليس في استطاعة احد ، غير الذين عاشوا في فلسطين خلال تلك المدة ، ان يدركوا مقدار جزع المزارعين العرب لتزايد عدد السكان اليهود تزايداً سريعاً . ذلك أن هذا التكاثر كان يساعد المستعمرات اليهودية على الاستغناء شيئاً فشيئاً عن اليد العربية العاملة ، ومن هنا خشي

عامة العرب ، كما جاء في تقرير لجنة شو « من ان يُحرَموا رزقهم ، ويخضعوا لسلطان اليهود السياسي . » ولا جدال في ان العرب كانوا راغبين في الامن والسلام . انهم لم يطلبوا في الواقع اكثر من ان يُتركوا وشأنهم .

وتسارعت نسبة الهجرة اليهودية خلال حقبة التطور الاقتصادي ما بين ١٩٣١ و ١٩٣٦ فتزايدت من جرّاء ذلك مخاوف العرب . وفي السنوات الثلاث التالية ، حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، استمر التطوّر الاقتصادي ، ولكن النضال السياسي ازداد عنفاً على عنفٍ . حتى اذا كانت سنة ١٩٣٩ نُشر الكتاب الابيض الذي فرض قيوداً شديدة على الهجرة . فاحتج اليهود على ذلك احتجاجاً قوياً ...

وعندما اقرّت الجمعية العمومية مشروع التقسيم دبّ الفزع في نفوس عرب فلسطين الذين استشعروا ، منذ البدء ، ان إقرار هذا المشروع يعني الحرب . وقد حدثني شاب في بيت لحم عن آلاف العرب الذين شرعوا يغادرون البلاد فقال : « إننا نريد مكاناً نستطيع فيه ان ننام طوال الليل !..» وفي الاشهر التالية كنت تسمع

العرب ينشدون ، في كل مكان ، الاناشيد الوطنية المناهضة للصهيونية . وقد اخبرني احد هؤلاء ان تلك الاناشيد نُظمت خلال اضطرابات ١٩٣٦ – ١٩٣٩ . وشهدَ شتاء ١٩٤٧ – ١٩٤٨ مأساةً موجعة في فلسطين . فنزح اليهود عن المناطق العربية ، ونزح العرب عن المناطق اليهودية ، وشن اليهود هجماتهم على القرى العربية وشن العرب هجماتهم على المستعمرات اليهودية . وفي خلال ذلك كانت القوات البريطانية تنسحب من فلسطين بأسرع ما تمكّنها من ذلك وسائل المواصلات . وحين انتصف شهر نوار كان جلاء الانكليز قد تمّ ، وأُعلِنَتْ دولة اسرائيل ، ونشبت حرب فلسطين .

وقبيل انتهاء الانتداب البريطاني نزح كثيرٌ من العرب عن بيوتهم القائمة في المنطقة المحتلة من قِبل اليهود . ولم ينزح جميع هؤلاء عن ديارهم بطوعهم وارادتهم . وانا اعرف ذلك جيداً ، فقد ساعدتُ بنفسي احدى الأسر العربية على الرحيل بعد ان أمرها اليهود بمغادرة المكان في مهلة اربع وعشرين ساعة . والحق ان مجزرة دير ياسين (٩ نيسان ١٩٤٨) احدثت فترة

من الهول والذعر في البلاد كلها . وما هي الا فترة حتى جلا معظم سكان حيفا العرب عن المدينة . وفي تموز أبلغَ الكونت برنادوت مجلس الامن ان القوات الاسرائيلية هاجمت ، عند مطلع الهدنة الثانية ، ثلاث قرى جنوبي حيفا وأخرجت منها ثمانية آلاف عربي ، ودمرت منازلهم ....

وفي ١٢ تشرين الأول جاء في رسالة من لندن ان رجلاً انكليزياً طاف مناطق اللاجئين فوجد اريحا تغصّ بعشرة آلاف لاجيء ، ووجد بير زيت التي لا يزيد سكانها على الف نسمة مزدحمة باربعة عشر الف لاجيء . ووجد أسراً عربية تعيش كل منها تحت إحدى شجرات الزيتون القائمة على جانب الكثيب . وفي كانون الاول كانت بلدة رام الله تضيق باكثر من ثلاثة اضعاف عدد سكانها الطبيعي . وعندئذ نظّم بعض موظفي الامم المتحدة حملة إسعاف ضيقة النطاق لاغاثة اللاجئين فتبرع كل منهم بجنيه واحد اسبوعياً . وقد تبنّى احدهم ، وهو كابتن في سلاح الطيران الاميركي ، طفلة في العاشرة من عمرها . وفي ٤ تشرين الثاني

أعلنت الامم المتحدة ان عدداً من اللاجئين الجدُد يتراوح ما بين خمسمائة الف ومائة الف قد انضافوا الى الخمسمائة الف لاجيء الذين شردتهم الاعتداءات الصهيونية من قبل . وفي الجنوب خسرت بير السبع جميع سكانها البالغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة ، خلا مائتين منهم ليس غير .

وجاء في رسالة شخصية صادرة عن فلسطين في ١٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ما نصه : « يواصل اليهود إخراج العرب الذين بقوا في قـُراهم ، وذلك لكي يُحلوا محلهم جماعات من المهاجرين اليهود الجدد . » وتقول اصح الاحصاءات التي وُضعت في حزيران ١٩٤٩ ان هناك ٩٤٠،٠٠٠ لاجيء عربي يقيمون في القسم الباقي بأيدي العرب من فلسطين ، وفي البلدان المجاورة . وتزعم السلطات الاسرائيلية ان خمسمائة الف من هؤلاء هم لاجئون حقيقيون نزحوا عن اسرائيل ، ولكن وزارة خارجيتنا الاميركية تجعل الرقم ٧٠٠،٠٠٠ وفي حزيران قدّمت الحكومة الاردنية شكوى الى الامم المتحدة نصّت فيها على ان الفاً وخمسمائة قد أخرجوا ، بقوة

السلاح ، من منطقة ضُمّت الى اسرائيل بموجب اتفاقية الهدنة .

ولكي أعطي القاريء صورة أدق عن المأساة أنقل هنا فقرات من رسالة تلقيتها في الشتاء الماضي من مسيحيّ عربي متخرج من احدى المدارس الاكليركية الاميركية ، وكان يعيش كلاجيء في بيت لحم .

« لقد كنت اعيش في القدس ، كما تعلم ، مع افراد اسرتي في المستعمرة اليونانية . وكانت امي ، وإخوتي ، وأخواتي وعائلاتهم يعيشون في حي المصرارة ... والواقع أني كنت آخر عربي غادر مع اسرته المستعمرة اليونانية في القدس ، وهكذا وجدتُ نفسي عملياً في قلب الجحيم حتى الرابع من شهر نوار عندما أكرهت على الانتقال ، بعد ان تعذّر عليّ ان اجد طعاماً لأطفالي الجوعى طوال ايامٍ بكاملها . واخيراً عزمت على ان احمل اقلّ قدْر ممكن من الثياب ، بسبب نُدرة وسائل المواصلات ، وأنتقل الى بيت لحم . وهكذا تركت كل شيء في البيت ، وأوصدت الباب ثم توجهت مع أسرتي نحو المدينة التي وُلد فيها يسوع.

وهناك استأجرت غرفة كان علينا ان نستعملها لكل شيء : فيها ننام وفيها نستقبل اصدقاءنا ايضاً . وبعد شهر من وصولي الى بيت لحم وضعت زوجتي مولوداً ذكراً ... عندئذ ذكرتُ السيد المسيح ... وعمرَ صدري بآمال كبار في ان يترسّم هذا الغلام خطى سيده العظيم حين يبلغ مبلغ الرجال ، على الرغم من أنا ندعوه اليوم « شحاذ بيت لحم الصغير » ... وإن اسفي لشديد لضياع مكتبتي التي تنطوي على ٢٫٥٠٠ كتاب ... ولكني احس من ناحية ثانية ان الله قد أسبغ نعمته عليّ حين رزقني ذلك الطفل الصغير الذي لا يقوّم بكنوز الارض كلها ... آخر ما سمعناه من انباء ان اليهود نهبوا جميع بيوت العرب في القدس وقد أخبرت ان بيتي قد هُدّم تهديماً ... اما الحالة العامة في الوقت الحاضر فانها شيء اكثر مما يستطيع المرء ان يتخيل ... فمئات الأسر تعيش على اقل الطعام ، وبين الفينة والفينة نجد صبياً او صبية يغمى عليهما في الشارع بسببٍ من الجوع وسوء التغذية . وامراض السل والتيفوس والتيفوئيد والجدري تتفشى في صفوف اللاجئين

بشكل يقطع نياط القلوب . ان مئات الأسر لتعيش اليوم في الكهوف ولا غطاء لديهم يقيهم برد الشتاء . ومنذ ايام وضعت امرأة طفلاً فاضطرت الى ان تلفه بحصير من القش اذ لم تكن تملك ثياباً ما . وقد زرت القدس منذ فترة قريبة لأرى احد اقربائي ، وكم كان عجبي حين وجدت ابنته البالغة من العمر سنتين ملقاة نصف ميتة بسبب من داء الكساح . ليس هذا فحسب بل ان طفله الذي وُلد حديثاً يتكشّف الآن عن اعراض الكساح بسبب من سوء التغذية . وقد نمتُ تلك الليلة مع الأسرة التي تتألف من ستة اشخاص في غرفة لا يزيد اتساعها على مطبخ اميركي . واخيراً مات عدد كبير من اللاجئين ، بسبب من الثلج ، في نابلس وعمان ورام الله .... ولا أخفي عليك ان معنويات الناس آخذة في الهبوط ... ومنذ ايام قال لي رجل عجوز ورع : « اذا كانت كل هذه الآلام ستقودنا الى الجنة ففي استطاعتي ان اؤكد لك ان الجنة لا تستحق هذا الشقاء كله ! »

لقد انقضت على كتابة هذه الرسالة اشهرٌ عدة

حَفِلتْ باحداث كثيرة ، ولكن السلام الصحيح لم يَسُدْ بعدُ الديار المقدسة ، وما أحسبه سيسودها حقاً . وعندي أن اولئك الذين يزعمون ان العرب سيرفضون الوضع القائم لمجرد أنهم هزموا في الميدان ، ينسون حقائق ثلاثاً عن العقلية العربية . الاولى ايمان المسلمين بالقضاء والقدر. فقد حدثني بعض اصدقائي العرب في الشتاء الماضي قائلين: « نحن نعلم جيداً ان قنبلة ذرية واحـدة تكفي لابادتنا جميعـاً . » ولكن ذلك لم يغيّر شيئاً من مشاعرهم أو ألوان نشاطهم . وحين كانت قنابل اليهود تفتك بعشرات من العرب قبل انتهاء الانتداب البريطاني قال لي احد العرب : « لقد توقعنا ذلك . ولكنّ هـذه الامور لا تزعجك اذا كنت مؤمنا بالقضاء والقدر ايماناً حقيقياً» . والواقع ان نتيجة هذا الايمان بالقدر ليست دائماً ، أو ليست هي بالضرورة ، التسليم والخضوع ، فعندما يشعر المسلم أن ثمة واجباً يجب ان يقوم به فان ايمانه هـذا بالقضاء والقدر يدفعه الى القيام بذلك الواجب من غير ان يحسب حساباً للنتائج . والاستشهاد في سبيل قضية مقدسة ليس غريباً عن العرب بحال من الاحوال .

والحقيقة الثانية التي يتعين على الشعوب الغربية ان تدركها هي ان الحياة الانسانية لا قيمة كبيرة لها في نظر العرب على العموم . ولعل الحيـاة ارخص في نظرهم مما هي في نظر العقل العسكري في الغرب . ان فقدانهم لمعركة ما ، او قتل مئات من ابناء بلادهم ليسا كافيين لحملهم على الاستسلام والخضوع . انهما على العكس يحفزانهم الى العناد في المقاومة والى الانتقام .

اما الحقيقة الثالثة فهي ان الاسلام لا يعلّـم السكوت على الضيم ولا يرى حرجاً في الاخذ بالثأر .

لماذا هبت الدول العربية هبة رجل واحد في وجه اسرائيل ؟ قـد يقال ان مصر وشرق الاردن وسورية كانت تطمع في الاستيلاء على اقسام من فلسطين ،ولكن اوسع الناس خيـالاً لا يستطيع ان ينسب مثل هـذه المطامع للعربية السعودية او العراق او لبنان . كل ما في الأمر ان هذه الدول لا تريد ان تقوم في فلسطين دولة يهودية . ولماذا كان جميع الاميركيين غير اليهود والعـائشين في بلاد الشرق الادنى يعطفون على قضية العرب ؟ ان ذلك غير راجـع الى كرهٍ في نفوسهم

للشعب اليهودي . فالواقع ان كثيراً منهم قصدوا الى الشرق الادنى وهم أميلُ ما يكونون الى الصهيونية . انما الاساس الوحيد الذي تقوم عليه معارضتهم هو اعتقادهم الجازم بان الصهيونية تناقض الحق ، من الناحية الاخلاقية بسبب من انها تنطوي على ظلم عظيم ، لأهالي فلسطين الأصليين . ففي تقسيم فلسطين ، وإقامة دولة يهودية في جزء منها انتهاك صريح لحقوق أصحاب البلاد الاصليين الانسانية الاساسية ، وبخاصة لحقّ العيش بسلام وطمأنينة في الارض التي احتلها آباؤهم واجدادهم طوال حقبة تزيد على ألف سنة ، ولحقّ اختيار الحكومة التي يريدون ان يعيشوا في ظلها . وبكلمة ، فان معارضي الصهيونية يبنون معارضتهم هذه على اساس ايمانهم بانه لا عدالة من غير تطبيق المباديء التي نصت عليها نقاط ولسون الاربع عشرة ، وميثاق عصبة الامم ، وميثاق الاطلسي ومقدمة ميثاق الامم المتحدة .

لقد وضعت عصبة الامم نظام الانتداب لمصلحة الشعوب التي يشملها هذا النظام ، ونصت على ان غرض هذه الانتدابات إعداد الشعوب المنتدب عليها للحكم

الذاتي لتسلّم البلاد بعد ذلك الى أصحابها . وبناء على هذا المبدأ يكون من واجب الدولة المنتدبة لادارة بلد من البلدان ، والتي تريد التنازل عن انتدابها ، ان تتنازل عنه لشعب تلك البلاد نفسها ، كما يكون من واجب الامم المتحدة ، اذا ما تولت أمر بلد منتدب عليه ، ان تسلك فيه مسلكاً يتفق والغرض من الانتداب . أما فرض أيما حكومة على شعب بلد ما من قِبل دولة أجنبية أو مجموعة من الدول الأجنبية ، حتى ولو كان فرضها لمصلحة الشعب ولحمايته ، فهو في أحسن أحواله تدخُّل غير مشروع في قضايا الشعوب الخاصة . وأما فرض جماعات اجنبية غريبة على بلد لا يريدها فهو جوهر الاستعمار . وسواء اعتقدنا انه من واجب العرب أن يرحبوا باليهود أم لم نعتقد فهناك حقيقة صارخة ، وهي ان العرب لا يريدون العيش مع هؤلاء .

وحين أعلن الشيخ أوستن ، في نيسان ١٩٤٨ ، ان مصير فلسطين يجب ان تقرره بريطانية العظمى وفرنسة والولايات المتحدة انبرى صمنر ويلز لنقده قائلاً :

« ان معنى ذلك العودة الى تلك الأيام التي كانت الدول الكبرى فيها تقرر مصائر الشعوب وكأنها قطيع من الغنم . » ومع ذلك فان ويلز يريد من الامم المتحدة أن تمثل الدور نفسه مع عرب فلسطين . فهو يقول ان دعوى العرب « مبنية على أساسٍ واحد هو انهم يؤلفون أكثرية سكان فلسطين ، وانهم يعيشون في البلاد منذ قرون عديدة . » وما الذي يمكن ان يطلبه الانسان اكثر من هذا ؟ ومثل هذه النزعة الى التصرف بمقدرات فلسطين من غير موافقة أهلها الاصليين تتجلى في الحجة التي نسمعها كثيراً ، والتي تقول : ما دمنا لا نستطيع أن نطلب من الدول الاخرى أن تقبل اللاجئين اليهود في الوقت الذي نرفض نحن قبولهم في بلادنا ، فان فلسطين تظل الحل الوحيد للمشكلة . وبكلمة اخرى : في موضوع فلسطين ، لا يتوجّب علينا ان نطلب موافقة أحد !...

والواقع ان اقامة دولة يهودية في فلسطين لا يمكن ان يُدافع عنها ، بصورة عقلانية ، الا من طريق الطعن في صلاح المبدأ القائل بحق الشعوب في تقرير

مصيرها . ومن عجب ان بعض زعماء الصهيونية الأوائل اتخذوا هذا الموقف فعلاً . ففي مؤتمر الصلح المنعقد في باريس بعد الحرب العالمية الاولى انتقد الوزير لانسنغ ، بصراحة ، مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها زاعماً انه « واحد من تلك الاعلانات عن مبدأ يبدو للناس وكأنه صحيح . وقد يكون هذا المبدأ صحيحاً في صورته المجردة ، ولكنه اذا أريد له التطبيق في جميع الحالات يصبح مصدر اضطراب سياسي ، وكثيراً ما يكون باعثاً على الثورة ... » بهذه الطريقة ، طبعاً ، عبّر هذا المبدأ عن نفسه عام ١٧٧٦ !! *

وأياً ما كان ، فان الجهود التي بُذلت لفرض دولة يهودية على شعبٍ يُعلن بأعلى صوته انه لا يريدها تظل في أساسها عملاً لا اخلاقياً مهما قيل عنها من وجهة النظر القانونية لأن معناها التصرّف بشيء لا تملكه .

والآن ، وقد أصبح انشاء الدولة اليهودية امراً واقعياً فهناك شعور سائد بأنه لم يبق ثمة فائدة من البحث في ما اذا كانت الصهيونية حقاً ام باطلاً ،

* هو عام الثورة الاميركية على الانكليز [المعرب]

وبأن كل مشروع واقعي المستقبل يجب ان يُبنى على أساس الامر الواقع لا على أساس ما نعتقد انه الحق . ولكن هناك أسئلة يجب ان تُواجَه . هل صحيح ان كل شيء قد استقر في فلسطين ؟ والى متى سيظل مستقراً ؟ هل يجب أن يُسمَح لهذا الوضع بالبقاء على ما هو عليه ؟ ان الامور الواقعة ليست دائماً ثابتة أو سرمدية . والظفر لا يبرّر الباطل . فقد حقق هتلر انتصارات ضخمة في اوروبة . ولكنها لم تعمّر طويلاً . ومصرعُ ستة ملايين يهودي في أوروبة على أيدي النازيين لا يمكن أن يصبح حقاً لمجرّد انه أصبح شيئاً واقعياً . اضف الى ذلك اننا اذا حاولنا ان ننظر الى المسألة كمسيحيين فليس في استطاعتنا أن نُسقط من حسابنا ناحية الحق والباطل .

كتب اليّ في العام الماضي صحفي يهودي فقال : « أرجو ان تطرح جانباً شعورك بأن ظلماً فادحاً قد أُنزل بالعرب . » وجوابي على هذا الرجاء ان هذا هو بالذات ما يجب ان لا نُهمله أو ننساه . انه الحقيقة الاخلاقية الرئيسية التي يتوقف عليها كل ما سواها .

٣ . من المسؤول عن المأساة ؟

ان مسؤولية المأساة الفلسطينية لا يمكن ان تُلقَى على اكتاف فريقٍ واحد من الفرقاء المعنيين . انهم جميعاً مسؤولون في نسبٍ مختلفة ودرجات متفاوتة . فلنحاول في هذا الفصل تحديد تبعة كل فريق على حدة .

ونبدأ بمسؤولية بريطانية العظمى . فالواقع ان الانكليز بإصدارهم وعد بلفور وبقبولهم الانتداب على فلسطين ومباشرة سلطات ذلك الانتداب إنما كانوا يطبقون سياسة استعمارية غاشمة . أضف الى ذلك ان المفاوضات السرية المعقدة التي أجروها مع كل من الجانبين العربي واليهودي كانت تنطوي على التزامات متناقضة متضاربة . وليس من الخير ان نعيد ههنا سرد هذه القصة

الطويلة . ولعلنا نشير اليها في مناسبة اخرى ...

وليس من شك في أن قسطاً كبيراً من مسؤولية المأساة الفلسطينية تتحمله منظمة الامم . صحيحٌ ان مهمتها كانت صعبةً الى حدٍّ بعيد ، ولكن ثمة ما يحملنا على الاعتقاد بانها لو وضعت منهاجاً حكيماً يُنصف كلاً من الفريقين المتنازعين ، جهد الطاقة ، ثم عمدت الى تنفيذه بحزم ، لقبله الفريقان من غير ان تنشب الحرب بينهما . والحق ان مشروع التقسيم الذي تبنته الهيئة لم يكن ذلك المنهج الحكيم . إنه ما كان عادلاً ولا واقعياً .

لقد حاولت لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين ان تصل الى قرار حكيم وعادلٍ . ولكن المشروع الذي وضعته لم يكن ممكن التنفيذ لسببين اثنين . فمن ناحية كانت الحدود التي رسمها غير منطقية ، فهي لا تقوم على أساس جغرافيٍّ أو عِرقيٍّ أو اقتصادي ، بل تهدف قبل كل شيء الى ان تشمل اكبر عدد ممكن من المستعمرات اليهودية المتناثرة ههنا وهناك ، في المنطقة اليهودية . وقد بُني المشروع من ناحية ثانية على افتراض قيام

« وحدة اقتصادية » بين المنطقتين ، فكأن اللجنة ومنظمة الامم المتحدة افترضتا انه في اللحظة التي يُقَرّ فيها المشروع سيُسارع العرب جذلين مبتهجين الى التعاون التجاري وغير التجاري مع الدولة اليهودية . والواقع انه لم يكن ثمة مبرّر لهذا الافتراض لأن العرب كانوا قد بدأوا قبل ذلك مقاطعة اليهود ، وكان الاستياء المرير قد بلغ منهم مبلغاً يتعذر معه التعاون بينهم وبين خصومهم .

وليس من ريب في ان الولايات المتحدة يجب أن تتحمل جزءاً كبيراً من اللوم الذي يوجه الى الامم المتحدة لعجزها عن حل مشكلة فلسطين في الوقت المناسب . فقد انتصرنا ، رسمياً ، للقضية الصهيونية على أساس ظاهري من العطف الانساني على مشردي اليهود في أوروبة ، في حين قصرنا عن خدمتهم خدمة صحيحة فلم نفتح ابواب بلادنا نفسها في وجههم . ومن هنا فليس ثمة أي عذر لاولئك الاميركيين الذين ملأوا الدنيا صياحاً طالبين فتح ابواب فلسطين لضحايا الاضطهاد الاوروبي من اليهود ، ثم لم يعملوا شيئاً لضمان دخولهم

الى الولايات المتحدة .

كذلك يجب أن يلام الاميركيون أشدّ اللوم على تأييدهم للارهابيين اليهود في فلسطين . ومن أبشع الامثلة على ذلك ، الترحيب الذي استُقبل به مناحيم بيجن قائد « الايرغون زفاي ليومي » عندما زار الولايات المتحدة في تشرين الثاني ١٩٤٨ ليجمع الاعانات ويمهد لنجاح حزبه في الانتخابات الاسرائيلية . والواقع ان صحيفة الـ « نيويورك تايمس » أطلقت عليه في إعلان استغرق صفحة كاملة من عددها الصادر في ٢٣ تشرين الثاني لقب « الرجل الذي تحدى امبراطورية واكتسب مجداً لاسرائيل . » ومجّدت أعمال الارهاب الفظيعة التي اقترفتها جماعته بوصفها « اجراءات انتقامية جريئة يُسبق الى مثلها ، استعاد بها الشعب اليهودي كرامته واحترامه الذاتي واحترام العالم المتمدن كله . » ومضى الاعلان فسرد أسماء « اكثر من الف اميركي بارز بينهم أعضاء في مجلس الشيوخ الاميركي ، ونواب ، وحكام ، ورجال دين ، ومربون ، وفنانون ، وكتاب وصناعيون وزعماء عماليون » يرحبون بذلك الرجل بمناسبة زيارته الارض

الاميركية ...

ومسؤولية إقرار مشروع التقسيم من جانب هيئة الامم المتحدة إنما تقع على عاتق حكومتنا الاميركية . فالواقع ان التصويت على التقسيم ، وقد جرى في الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ انما فرض من جانب حكومتنا فرضاً بعد ان التجأت هذه الحكومة ، من غير ان تخجل ، الى اصطناع اساليب التهديد السياسي التي اكل الدهر عليها وشرب . ولم تكد الجمعية تُقرّ هذا المشروع حتى رحب به الصهيونيون كنصر معنوي كبير . ولكنه في الواقع كان نصراً لا اخلاقياً . لقد كان برهاناً مخجلاً على ان اساليب التهويل والضغط الديبلوماسي غير المتحفظة ، وغير الاخلاقية ، تستطيع ان تسيطر على مؤسسة انشئت لغرض نبيل هو تحقيق العدالة الدولية . لقد كان ضربة فاجعة لثقة العالم بالامم المتحدة وبالولايات المتحدة الاميركية .

وخلال حملة الانتخابات الاميركية التي جرت في خريف ١٩٤٨ اتخذ تزاحم المرشحين السياسيين على

الاصوات الصهيونية شكلاً مخزياً . فقد عُني كلٌّ من هؤلاء المرشحين بالتعبير عن ولائه للأماني الصهيونية والمشروعات الصهيونية . وعندما ايد وزير الخارجية المستر مارشال ، مشروع برنادوت ، في باريس احرج موقف الحزب الديموقراطي في البلاد . حتى اذا اعلن المستر « ديوي » تأييده لمشروع التقسيم الاصلي وجد الرئيس ترومان ان من واجبه ان يكرر تأييده لهذا المشروع ذاكراً ان اي تعديل لا توافق اسرائيل على ادخاله لن يحظى بموافقته ... وإنقاذاً لكرامة وفدنا في باريس قيل في ذلك الحين ان مشروع برنادوت يجب ان يستعمل « كأساسٍ للمفاوضة » ليس غير ...!!

ليس هذا فحسب ، بل لقد الحّ وفدنا الى الامم المتحدة الحاحاً متواصلاً على ضرورة انضمام اسرائيل الى الهيئة من غير ما التزام سابق في ما يتعلق بالحدود ، وتدويل القدس ، او اعادة اللاجئين العرب الى ديارهم .

والعرب انفسهم جديرون ببعض اللوم . فقد كانت عواطفهم ، على العموم ، مع المانية اثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن هذا لا يعني انهم كانوا ضد

الديموقراطيات الغربية . إنهم لم يكونوا نازيي الهوى ، ولكنهم كانوا مخلصين لعروبتهم قبل كل شيء . كانوا يحاولون ان يلتمسوا تأييداً لمطالبهم الوطنية . وإذا كان الحلفاء قد أخلفوا بما وعدوهم به بعد الحرب العالمية الاولى فقد وجدوا ان من الخير لهم ان يتوجّهوا هذه المرة شطر المحور تحقيقاً لأمانيهم القومية .

ولعل رفضهم التعاون مع لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين (١٩٤٧) كان موقفاً غير موفق . ولكن حجتهم في ذلك واضحة . فقد جاءت فلسطين لجنة في اعقاب لجنة ، وكانت كل هذه اللجان تضع تقريراً لحل المشكلة ، ولكن لم ينتج عن ذلك كله اي عمل انشائي . وقد احسوا ان لا فائدة ، هذه المرة ، من محاولة عرض قضيتهم على اللجنة كرة اخرى ...

وعلى الرغم من ان سياسة العرب السلبية غير التعاونية كانت غير حكيمة من وجهة نظر السياسة العملية فليس من ريب في ان موقفهم الاساسي لم يكن بحال من الاحوال غير معقول . فقد طالبوا دائماً بانشاء حكومة فلسطينية مستقلة تُمنح فيها حقوق المواطنين الكاملة

لليهود والعرب سواء بسواء . ومع ذلك فهاهم اليوم يتبجحون بانهم منحوا العرب ، في اسرائيل ، نفس المركز تماماً .

وكان ترك اللاجئين العرب لقراهم خطأ كبيراً من وجهة النظر السياسية . ولكن خوفهم من ان يُذبحوا ذبح النعاج اذا ما لزموا بيوتهم ، هو الذي حملهم على الفرار كما حمل شعوباً كثيرة من قبلهم على اتخاذ هذا الموقف في ظروف مشابهة .

وعلى الجملة فأخطاء العرب كثيرة ، ولكن كثيراً مما يُتهمون به لا مبرر له على الاطلاق . ولعل ابعد التهم التي وجهت اليهم عن الصدق والحق ما يردده الصهاينة من ان العرب كانوا هم المعتدين في حرب ١٩٤٨ . فهم يستعملون لفظتي « العدوان » و « الغزو » عند كلامهم على العرب ، متجاهلين ان العرب يعتبرون اليهود غزاة ومعتدين . ولعل اصح وصف لموقف العرب يوم حرب فلسطين هو القول بانهم لجأوا الى « المقاومة » . ولا جدال في ان ما تبذله الدعاية الصهيونية من جهد للتمييز بين عرب فلسطين وجيوش

الدول العرب المجاورة انما ينطوي على تشويه بالغ لموقف الفلسطينيين العرب . فالواقع ان الجيوش العربية لم تغز فلسطين الا بالمعنى الذي غزت به الجيوش الاميركية بريطانيا اثناء الحرب العالمية الثانية . فقد استقبل عرب فلسطين هذه الجيوش بوصفها درعاً واقياً يقيهم عدوان اليهود .

وهناك على كل حال حقيقة لا يمكن ان تُنكر وهي ان اسرائيل كانت هي البادئة بالقتال في عدة مواطن . فقد كان هذا هو موقفها لا في القدس وحدها ، بل في حيفا والجليل الغربي كله ايضاً . وهكذا نرى ان اتهام العرب بالعدوان مردودٌ من اساسه . فليس العرب هم الذين طردوا اللاجئين من بيوتهم . واللاجئون لم يفرّوا من وجه الجيوش العربية ، بل فرّوا اليها .

ومسؤولية اليهود اعظم من مسؤولية غيرهم بكثير . فلو انهم اتبعوا سُبُلاً غير التي اتبعوها لتغير وجه الأحداث التي مرّت بالبلاد المقدسة .. والواقع أن موقف اليهود من العرب كان منذ البدء لا تعاونياً

تنقصه اللباقة والكياسة . والعرب قومٌ لطفاء في معظم الأحوال ، ومن أجل ذلك لم يستطيعوا ان يفهموا مسلك المستعمرين اليهود الفظّ التيّاه .

ثم إن زعماء الصهيونية لم يُحسنوا التعبير عن مطالبهم السياسية في تلطّف ولياقة ، مما قطع الأمل في حمل العرب على الوصول معهم الى تسوية . والحق ان مسلك الصهيونيين تجـاه العرب كان في بعض الأحيان أشبه بموقف اولئك الاميركيين الذين قالوا يوماً « ان الهندي الاحمر الذي يُقتل ، هو وحده الهنـدي الصالح ! » فقد حدثني احد شباب اليهود ، مرةً ، فقال : « إن العرب ليسوا إلا متوحشين . إن عليهم ان يعودوا إلى الصحراء التي لا يستحقون اكثر منها !! » .

وأفظع اخطاء اليهود لجوؤهم الى استعمال العنف من اجل تحقيق أهدافهم . صحيح ان سياسة الارهـاب لم يوافق عليها ، أو يلجأ اليها ، جميع الصهيونيين ، ولسنا نعرف على كل حالٍ ما اذا كانت أغلبيتهم قد ابتهجت بها سراً ، ولكن الراهن ان كثيراً منهم قـد فعلوا ذلك . ومن الجماعات الصهيونية من لم يكتفِ بالاصرار

على المطالبة بضم سائر اجزاء فلسطين وشرقي الاردن الى الدوله اليهودية بل أكد ان العنف والخداع مبرّران من اجل بلوغ ذلك الهدف . وفي خطابٍ القـاه في نيويورك زعيم الايرغون، مناحيم بيجين ، في كانون الاول ١٩٤٨ قال : « يجب ان نذكر كلنا ان القتال لم ينته بعد . يجب ان نواصل القتال بأساليب جديدة واسلحة جديدة حتى تتحرر اسرائيل بكاملها وحتى يعود جميع افراد شعبنا الى وطنهم » ...

وفي خلال فترة الارهاب التي سبقت انتهاء الانتداب البريطاني كان بعض الصهيونيين يعلنون شجبهم لاساليب العنف ، ويقولون إنهم يعرفون الارهـابيين وان في استطاعتهم وضع حـد للعنف اذا ما تركهم الانكليز وشأنهم . ولكنهم لم يتعاونوا مع الحكومة في القبض على الارهابيين ، فبدا أن هـذه السياسة تحظى بتأييد الكثرة الكبرى من اليهود الفلسطينيين . واخيراً بلـغ الارهاب أوجه في مصرع وسيط الامم المتحدة ،الكونت فولك برنادوت ، ومساعده الفرنسي الكولونيل اندريه بيير سيرو ، في ١٧ ايلول ١٩٤٨ ، في القطمون وهي

احدى ضواحي القدس الواقعة خارج المدينة القديمة والتي كان اليهود قد احتلوها اثناء الربيع . وحتى الآن لم يُقبض على قتلة الرجلين .. ويبدو ان موقف الصهيونيين العام من مصرع برنادوت هو التالي : « إنه لمؤسف جداً ؛ فلنتحدّث عن شيء آخر !.. » وفي رسالة نُشرت في النيويورك تايمس في ٢٤ ايلول انحى الزعيم اليهودي المعتدل الدكتور ماجنيس ، باللائمة على الاميركيين المؤيدين للارهابيين وأضاف : « ان جزءاً كبيراً من مسؤولية الحادث يجب ان تقع على الدوائر الرسمية في اسرائيل التي قامت في وقت من الاوقات بنشاط مشترك مع الجماعات الارهابية والتي عمدت الى التفاهم معها وضم افرادها الى القوات الرسمية المسلحة بدلاً من ان تعمد الى التضييق عليها وملاحقتها . »

وقد رددنا من قبل على دعوى اليهود بأن العرب معتدون في الحروب التي عقبت انتهاء الانتداب البريطاني على البلاد ، وأشرنا الى أن اليهود كانوا هم المعتدين في بعض المواطن ، كالقدس وغيرها . وفي المناطق العربية التي استولى عليها اليهود خارج المدينة العربية ، في القدس

نُهبت بيوت العرب الذين غادروا البلدة نهباً كاملاً . لقد انتزعوا الابواب والنوافذ والادوات الكهربائية وحتى انابيب المياه واستولوا عليها مع غيرها من الاثاث والمفروشات المنقولة ..

ولم يكن موقف حكومة اسرائيل من مقررات هيئة الامم المتحدة كما كان مُتوقعاً بعد تلك الحملات التي شنوها على العرب لرفضهم مشروع التقسيم . وفي اثناء القتال ، وحتى في فترة الهدنة التي فرضتها الامم المتحدة جلب الاسرائيليون الى دولتهم اسلحة عسكرية وطائرات بمختلف الاساليب ، كما استقدموا عدداً كبيراً من المهاجرين الصالحين للخدمة العسكرية ، مما أثار احتجاج مندوبي الامم المتحدة ...

وفي ١٢ تشرين الثاني صرّح بن غوريون قائلاً : « اننا لن نحارب الامم المتحدة إذا ما ارسلت قوات الى بلادنا ، ولكننا لن نوافق على اي قرار تتبناه ضدنا ، في غير ما روّية . وما لم نُكره على ذلك بقوة السلاح فلن نتخلى عن اي موقع كسبناه في الجنوب » . وكانت القوات الاسرائيلية قد تغلبت قبيل ذلك على

المصريين في النقب .

واهم من هذا كله مأساة اللاجئين العرب . وهنا تزعم الحكومة الاسرائيلية وانصار الصهيونية ان اسرائيل ليست مسؤولة عن هذه الكارثة ، زاعمين ان العرب انما تركوا البلاد بناء على نصيحة زعماء الدول العربية ... وقد يكون هذا الزعم صحيحاً في بدء الجلاء العربي عن فلسطين ، ولكن الذي أكره معظم العرب على الجلاء هو مذبحة دير ياسين الرهيبة في ٩ نيسان . إن الذعر هو الذي اخرج كثرة العرب من ديارهم . وقد رأينا سابقاً انهم لم يفروا جميعاً بطوعهم وإرادتهم ، وان عملية الاخراج القهري استمرت حتى حزيران ١٩٤٩

وسواء اعتبرنا اليهود مسؤولين عن هرب اللاجئين ام لم نعتبرهم فان اليهود مسؤولون عما عملوه حول هذه الفاجعة وما سيعملونه من اليوم فصاعداً . والواقع ان الاسرائيليين عملوا منذ اللحظة الاولى على اساس افتراض ان اللاجئين لن يعودوا الى ديارهم على الاطلاق . ففي ١٣ ايلول وردت برقية لوكالة الانباء المتحدة جاء فيها : « ان ميناء حيفا ، الذي كان من انشط موانيء الشرق

الاوسط في وقتٍ مضى ، ليرجّع اليوم اصداء الديناميت الذي يفجره اليهود تنفيذاً لبرامج التجميل الخاصة ... لقد دُمرت الاحياء العربية وسُوّيت بالارض هدماً وإحراقاً .... اما الناصرة ، التي يقدسها المسيحيون ، فتبدو في حالة طبيعية . ولكن بين حيفا والناصرة عشرات من القرى التي هجرها اهلها وتحولت الى خرائب . لقد كانت بيوت نصف مليون من اللاجئين قائمة هناك . اما البيوت التي لم تهدم وتُسوّ بالارض ، نتيجة للقتال ، فاليهود يستفيدون اليوم من حجارتها . وثمة تقارير اخرى وردت بعد من مناطق اخرى وكلها تنطق بمثل هذه الوقائع .

وليس يجوز ان نختم هذا الفصل من غير ان ننص على ان مسيحيي العالم يجب ان يتحملوا بعض التبعة في ما حل بالديار المقدسة من مظالم . والواقع ان الاضطهاد هو الذي برر المطالبة بوطن قومي لليهود ... وان الاخفاق في البحث عن مأوى آمن لضحايا العدوان الأوروبي في مكان آخر من ارجاء الأرض مكّن اليهود من الالحاح على انهم لن يجدوا ملجأ يفزعون

اليه غير فلسطين ... وان عدم التعبير الصريح القويّ عن اهتمام النصارى بفلسطين قد ادى بالارض المقدسة الى ان تقسّم ، بل الى نسيان ما اشترطه مشروع التقسيم من تدويل القدس ... وان تبلّد المسيحيين وخمولهم وخوفهم من ان يثيروا شعوراً معادياً للسامية القى باللاجئين العرب في براثن الجوع والبرد على الرغم من النداءات المثيرة التي وجهها نفرٌ قليل من الاشخاص ، والجهود المخلصة التي بذلتها بعض الجمعيات ، في حين ان الدعاية المنظمة والتنظيم الدقيق كانا جديرين بان يوفرا كثيراً من الشقاء وينقذا كثيراً من الارواح . واخيراً فأن عدم ادراكنا ما وقع في البلاد المقدسة وما تعنيه هذه الاحداث بالنسبة الى النصرانية يحول دون القيام بالعمل الذي يتعين علينا القيام به ...

٤. مزاعم صهيونية ...

ليس من شك في أن في الصهيونية أشياء كثيرة خليقة بأن تستثير عطف المسيحي الصادق ولكن جميع ما قد ننسبه إلى الصهيونية من محاسن لا يمكن ان يَعْدل الظلم الذي انزله اصحابها بساحة العرب اهل فلسطين ...

ويجب التمييز بين فكرة الوطن القومي لليهود وفكرة انشاء دولة يهودية لأنه كان هنالك دائما جماعات كثيرة تعطف على الفكرة الاولى في حين تشجب الثانية وترفضها . واذا تركنا جانباً في اللحظة الحاضرة مسألة الدولة المستقلة ففي استطاعتنا ان نقول ان الوطن القومي اليهودي ينطوي على امنيتين اثنتين : ملجأ ليهود العالم المشردين ، ومركز لاحياء الثقافة اليهودية وتطورها .

ولا جدال في أن السبب الاول الذي من اجله

عطف الشعب الاميركي منذ الحرب العالمية الثانية على قضية الصهيونية هو الحل الذي بدا للاميركيين ان الصهيونية تقدمه لمشكلة ضحايا الاضطهاد النازي في اوروبة . فهل يكون في شجب الصهيونية السياسية ومعارضتها ما يدل على الاستخفاف بآلام اولئك البائسين ؟ لا ، طبعاً ! والحق ان المسؤول عن ضحايا اليهود الاوروبيين ليس هو الشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية المجاورة ، ولكن دول الغرب النصرانية ... وواضح ان فلسطين لا تصلح ان تكون مأوى لليهود من جميع اقطار الارض كما يدل على ذلك وضعها الحاضر دلالةً بليغة . ويجب ان نسلّم بان يهود فلسطين قد برهنوا عن شجاعة معتقداتهم عن طريق استقبال سيول المهاجرين اليهود والعمل على تأمين معيشتهم ، ولكن ضخامة المهمة نفسها تكشف عن المغالطة التي ينطوي عليها الحاح الصهيونيين على ان فلسطين هي الملجأ الوحيد الذي يرتضونه للمضطهدين من اليهود . وهناك ما يبرر الاعتقاد بان هذا الالحاح قد عقّد هو نفسه مشكلة اللاجئين اليهود واجّل حلها .

والصهيونيون اليوم انما يجنون ما حصدوه . فكثيراً ما بدا للمراقب العاقل انهم لم يكونوا ، خلال السنوات العشر الماضيات ، مهتمين بانقاذ يهود اوروبة الفارين من وجه الظلم بقدر ما كانوا مهتمين باستغلالهم للتوصل الى اهدافهم السياسية الخاصة .

ولكن انشاء وطن قومي يهودي يعني شيئاً اكثر من ايجاد ملجأ لمضطهدي اليهود . فالتأكيد على الاحتفاظ بقِيَمٍ ثقافية يهودية متميّزة كان احد الدوافع القوية في الحركة اليهودية . ولا يُنكر ان كثيراً من اليهود قد وجدوا في فلسطين معنىً جديداً للحرية والكرامة وتحرّراً من الشعور بالنقص الذي كان يُوقعه في نفوسهم كونهم يحيون في ظلّ دولة لا تدين بعقائدهم . كما لا يُنكر ان ادباً جديداً واشكالاً مختلفة من النشاط الثقافي قد ظهرت في المستعمرات ، وان تجارب موفقة في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي قد تمت . ولكنا على الرغم من اعجابنا بالجانب الايجابي من الصهيونية الثقافية نؤمن بانه لا يحق لليهود ان يبنوا لانفسهم وطناً ثقافياً على اساس من ايقاع الظلم بالعرب ...

وإصرار اليهود على ان يكون لهم كيـــان سياسي مستقل إنما يُبْنى على اساس الرغبة في السلامة . وقد قوّى هذا الشعور عندهم تلك الاضطهادات التي تعرّضوا لها في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ثم جاء العهد النازي فرسّخ هذ الشعور ترسيخاً بعيداً وقد كتب اليّ احد المدرسين اليهود يوماً : « كنت قبل ١٩٣٥ صهيونياً غير متحمس . ولكن الاحداث قد علمتني ان اليهودي لا يستطيع ان يبحث عن الأمان والسلامة في اي بلدٍ مسيحي . »

وفي معرض الرد على هذا الكلام أحب ان اقول اولاً ان احـــداً لا يستطيع ان يجزم ان اليهود سيكونون آمنين في فلسطين . ودولة اسرائيل لن توفق الى ضمان البقاء لنفسها والامن لسكانها إلا عن طريق التأييد المتواصل من الامم المتحدة . ان العرب قد يخضعون للضغط في الوقت الحاضر ، ولكنهم ما داموا يستشعرون انهم قد ظُلموا فأنهم سيترصدون الفرص للانقضاض على عدوهم والاخذ بثأرهم منه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فان يهود العالم

يكونون في حال مؤسفة حقا إذا كانوا لا يجـــدون الأمن إلا في فلسطين ، لأن قسماً صغيراً منهم فقط يستطيع ان يجد مأوى له هناك . اما الاغلبية الكبيرة من يهود العالم فلن تفكر تفكيراً جدياً في الهجرة الى فلسطين .

وأخيراً ، فعلى الرغم من المعاملة المخجلة التي يلقاها اليهود حتى في الولايات المتحدة فأن من الخطأ الزعم بأنه لا سلامة لليهود في بلادنا او اي بلدٍ مسيحي آخر . ففي انكلترا وفرنسة والولايات المتحدة وُفق كثـــيرٌ من اليهود الى التمتع لا بالأمن والسلامة فحسب ، بل بالثروة والسعادة ايضاً ، وهناك املٌ كبير في ان يحصلوا في وقت قريب على التحرر الصحيح والحقوق المدنية والاجتماعية الكاملة في البلدان المسيحية كلها . ولعل هذا يفرض عليهم ان يكونوا اكثر رغبــةً في التنازل عـــن انعزاليتهم ، إذ ليس باستطـــاعتهم ان يواصلوا وضع التأكيد على اختـــلافهم عن الآخرين ويقيموا على عزلتهم الضيقة ثم يتوقعوا ان يُعاملوا على قدم المساواة مع سائر المواطنين ...

وإذا كان الشعب اليهودي يريد ان ينشيء دولةً خاصةً به فان له ملء الحق في ان يفعل ذلك ، شأن غيره من الشعوب ، ولكن لا يحق له ان يقيم هذه الدولة في فلسطين . ويذكر وايزمان في مذكراته ان فلسطين لم يُشر اليها مجرد اشارة في كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » . اما ليو بينسكر ، احد رواد الصهيونية الكبار ، فذهبَ في الاصل الى انه يتوجب على اليهود ان لا يربطوا أنفسهم بالمكان الذي اعترضت فيه حياتهم السياسية ودُمِّرت تدميراً . وهرتزل نفسه كان يؤيد الموافقة على ما عرضته بريطانية من اقامة الوطن القومي اليهودي في اوغاندا ..

قد يقول اليهود ان فلسطين هي بلادهم المقدسة . ولكن فلسطين ليست بلاداً مقدسة عند اليهود فقط . كما سوف نرى في الفصل التالي فهي وطننا الروحي ايضاً . والقدس فوق ذلك احدى المدن المقدسة عند المسلمين . والمنطقة التي تنتظم المسجد الاقصى وقبة الصخرة تُعتبر في ارجاء العالم الاسلامي كله اولى القبلتين وثالث الحرمين . ويحسن بي ان استشهد هنا بكلمة للدكتور

فاضل الجمالي وزير خارجية العراق قالها باسم الدول العربية : « اما اتصال اليهود الروحي المستمر بفلسطين فلا يخوّلهم حق العودة الى البلاد المقدسة . لان فلسطين هي من الناحية الروحية مقدسة عند المسيحيين والمسلمين واليهود على السواء .. والاتصالات الروحية بمكان ما لا يمكن أن تستلزم قيام صلات سياسية به . فجميع مسلمي العالم تربطهم بالحجاز روابط روحية وثيقة ولكن الحجاز هو من وجهة النظر السياسية ، ملك لسكانه دون غيرهم . »

والواقع ان اتقياء اليهود الذين تشدّهم العاطفة الدينية ، اكثر من غيرهم ، الى ارض فلسطين لم يكونوا في يوم من الأيام أبرز العناصر العاملة في الحركة الصهيونية النظامية واكثرهم نشاطاً . وقد قال وايزمان عن اولئك اليهود الأتقياء الذين وفدوا الى فلسطين ليموتوا فيها ويُقبروا في ثراها المقدّس إنهم في نظر الحركة الصهيونية « عنصر لا قيمة له ، بل عنصر مُعوّق يرجع بالحركة الى الوراء » . وفي ١٩٠٣ أعلن حزب الـ « مزراتشي » وهو يمثل العناصر المتديّنة بين الصهيونيين

موافقته على ان تكون اوغندا وطناً قومياً لليهود . بل إن المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد في تلك السنة اتخذ قراراً بقبول هذه الفكرة .

ومهما يكن من أمر فان رغبة اليهود عن بذل الجهود الكافية لاقامة وطنهم القومي في مكان آخر غير فلسطين لا تبرّر دَوْس حقوق الشعب الذي كان يقطن فلسطين من قبلهم . وكان في ميسور دول العالم أن تقول للصهيونيين : « إن فلسطين آهلة بالسكان ، وهي بعيدة المنال من ناحية ، وغير مناسبة من ناحية ثانية . من اجل ذلك سنقدّم اليكم ارضاً اكبر وأحسن في مكان آخر ، فإما ان تأخذوها وإما أن تدعوها ! »

●

حاولت ان أثبت حتى الآن ان الدولة اليهودية في فلسطين لم تكن ضرورية . ولكن الصهيونيين يدّعون ان فلسطين ملكٌ لهم بوصفها وطنهم القومي ، ويقيمون هذه الدعوى على أسس توراتية وتاريخية وقانونية . فلننظر في هذه الحجج واحدةً إثر واحدة .

ونبدأ بالحجة التوراتية : هل وعد الله اسرائيل

بفلسطين ؟ أجل لقد فعل . ولكن دولة اسرائيل التي اقيمت سنة ١٩٤٨ ليست تحقيق ذلك الوعد . ذلك أن اليهود بعد ان ذاقوا عذاب الأسر وذلّه في بابل تابوا ، أو تاب بعضهم الى الله ، ثم رجع كثيرٌ منهم الى فلسطين . وقد اعتبرت الجماعة اليهودية الجديدة أن الله قد أنجز لها وعده ، إذ أرجعها الى البلاد المقدسة ، ولكنها لم تؤلف مملكة مستقلة ولم يرتقِ عرشها ملك من نسل داود . وانما خضعت في الاعم الأغلب لكهّان يدينون بالطاعة لأباطرة الفرس . ومنذ ذلك الحين واليهودية تنتظر تحقيق الوعد الكامل بمملكة داود السرمدية على يد المسيح المنتظر ظهوره في المستقبل .

أما « العهد الجديد » فينصّ على ان الله قد أنجز وعده كاملاً بمجيء الناصريّ ، لا بمعنىً سياسي ولكن بمعنىً روحي (متى : ٢ : ١ – ١٢ ؛ لوقا ٢ : ١ – ٣٩ ؛ يوحنا ١٨ : ٣٣ – ٣٧) وليس من ريب في أن رفض اليهودية الاعتراف بالمسيح قد افقدها حقها في الوعود الالهية ، وبذلك حلت كنيسته محلها بوصفها شعب الميعاد . (متى ٢١ : ٣٣ – ٤٣) .

ومهما يكن من شيء ، فهناك امرٌ واحدٌ راهن . وهو ان ايما شيء غير عادل او مناقضٍ لروح المسيح لا يمكن أن يكون إرادة الله . وعلى كل من يتحدث عن إنجاز الوعد الالـهي ان يتذكر الآية القائلة : « ويل لمن يبني بيته بغير عدلٍ وعلاليه بغير حق » (ارميا ٢٢ : ١٣) والآية : « الذين يبنون صهيون بالدماء واورشليم بالظلم . » (ميخا ٣ : ١٠)

ولننتقل الآن الى الحجة التاريخية . والواقع ان مسألة حق اليهود التاريخي في فلسطين قد نوقشت مراراً حتى ليكاد يتعذّر على المرء ان يُلقي عليها ايّ ضوء جديد ، ولكن من الخير مع ذلك ان نلفت النظر الى بعض النقاط الأساسية التي كثيراً ما تغيب في غمرة النقاش وصخبه . فاذا لم تكن فلسطين الوطن التاريخي للامة العربية بكاملها بنفس المعنى الذي كانت به وطناً قومياً للشعب اليهودي فأن صلة الامة العربية بفلسطين صلة حقيقية مباشرةٌ ، وهي أندى وأوثق من الصلة التي تربط ابناء اسرائيل بارض كنعان . هذا في ما يتعلق بالامة العربية جملةً . اما اذا نظرنا الى عرب

فلسطين على الخصوص فأننا نجد أن البلاد هي وطنهم التاريخي بمعنى انهم واسلافهم قد عاشوا فيها طوال اجيال وقرون كاملة . إنهم لا يحتاجون إلى ان يرجعوا الفي سنة الى الوراء ليلتمسوا صلة منقطعة تربطهم بالبلاد . ان صلتهم بفلسطين حية ومستمرة ، وهي لم تنقطع خلال القرون الثلاثة عشر الماضية . وليس معنى ذلك أنه لم يكن في فلسطين عربٌ قبل القرن السابع ولكنّ معناه أن سكان فلسطين كانوا في كثرتهم الغالبة عرباً منذ القرن السابع .

وفلسطين ، عند العرب ، ليست في ذاتها بلداً منفصلا عن الاقطار العربية الأخرى . فمنذ الوقت الذي اصبحت فيه جزءاً من الامبراطورية الرومانية حتى التخطيط الاصطناعي لمناطق الانتداب في ما بعد الحرب العالمية الاولى ، لم يكن لفلسطين كيانٌ منفصل كدولةٍ مستقلة . والحق أن احوالاً سياسية مختلفة تعاقبت على فلسطين بين الفتح العربي وسيطرة الاتراك على الشرق ، ولكن هذه البلاد لم تعرف طوال هذه القرون فترة يمكن ان يقال ان فلسطين كانت لا

تؤلف فيها جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي . فالواقع ان فلسطين ظلت عربية بسكانها ولغتها وثقافتها حتى خلال عهد الصليبيين القصير ، كما ظلت كذلك خلال اربعة قرون من السيطرة التركية . فصلة العرب التاريخية بفلسطين هي عين صلتهم بسائر اجزاء العالم العربي .

ولا مراء في أن احتلال بلد ما في فترة ماضية من التاريخ لا يؤلف حقاً في ملكيتها في الوقت الحاضر . فقد لاحظ فرانك ساكران في كتاب له انه اذا كانت فلسطين ملكاً لليهود ، بالحق التاريخي ، فعندئذ نستطيع ان نزعم ان كاليفورنيا ملك للمكسيك ، وان المكسيك ملك لاسبانية ، وان اسبانية ملك للعرب . واذا كان لملكية فلسطين ان تقرّر على اساس احتلالها في الماضي ، فكيف نختار الحقبة التي ينبغي ان تكون اساس التقرير ؟ واذا ما اعتُبرت السيادة السياسية في فترة معينة من الماضي امراً حاسماً فقد نضطر الى ان نسمح لايطالية واليونان وايران — هذا اذا لم نذكر العراق — بتقديم دعاواها والمطالبة بحقوقها في

الارض المقدسة .

على تلٍّ مشرف على شاطيء البحر بين غروتون وميستك ، في ولاية كونا كتيكوت ، يقوم منزل ريفي عتيق كانت تملكه أسرتي في زمن الثورة الاميركية ، والى جانبه مقبرة عائلية صغيرة تضمّ رفات بعض اجدادي . وقد زرت المكان عدة مرات في شوق كثير ، وفي احدى المناسبات اجترأت على ان أطلب إذن الرجل الذي يقطن البيت حالياً في القاء نظرة على داخل البيت العتيق . فسمح لي الرجل في ذلك ، ولكن في فتور واضح ، فلم استطع ان ألومه لما ابداه من ترحيب بارد بي ... وليس من العسير عليّ ان التخيل ما كان يمكن ان يكون شعوره لو انني قلت له انه بسبب من ان ذلك البيت كان منزل اجدادي فانني اعتبره ملكاً لي ، وان عليه ان يفسح لي مكاناً فيه . وما أظنه سيزداد اقتناعاً بدعواي حتى ولو عرضتُ عليه ان اشتري البيت بثمن غال ، او سمحت له بان يحتل جزءاً منه ..!

وعرب فلسطين الحاليون ليسوا جميعاً متحدرين تحدراً مباشراً من سكان البلاد القدماء او من العرب الذين

فتحوا فلسطين ؛ كما ان الشعب اليهودي المعاصر ليس متحدراً كله أو معظمه من الاسرائيليين القدماء تحدراً مباشراً . وفي هذه وغيرها من النقاط تنحصر قيمة دعوى العرب التاريخية : والواقع ان النقطة الرئيسية في وجهة النظر العربية ليست ان العرب كانوا في وقت ما من عصور التاريخ ، او طوال فترة ما من الزمان ، اصحاب فلسطين او حكامها ، بل انهم كانوا سكانها الفعليين اثناء الحرب العالمية الاولى ، عندما تولت بريطانية وعصبة الامم مقدراتها .

اما حجة الصهيونيين القانونية فتستند الى الاعتراف الدولي بحقهم في البلاد . واول خطوة نحو الاعتراف الدولي الرسمي بحق اليهود في فلسطين انما تتمثل في « وعد بلفور » . وواضح ان بريطانية لم تكن تملك فلسطين ، ولم يكن في وسعها ان تقدمها لليهود . كل ما قالته الحكومة البريطانية في ذلك الوعد انها تعطف على فكرة الوطن القومي اليهودي ، وستعمل ما في وسعها لتحقيقه . وبعد فترة قليلة استولى البريطانيون ، بمساعدة العرب ، على فلسطين .

ومعظم الناس يجهلون ان المعارضة الرئيسية التي انصبّت على وعد بلفور ، في بريطانية العظمى ، انما جاءت من جانب اليهود . والواقع ان وعد بلفور ، بشكله النهائي ، يختلف كل الاختلاف عما اقترحه الصهيونيون ، وان التعديلات التي طرأت عليه كانت ثمرة إلحاح اليهود في كل من بريطانية والولايات المتحدة . وتاريخ المفاوضات التي دارت حول هذا الموضوع يُظهر بوضوح ان غموض وعد بلفور لم يكن نتيجة الغفلة بل نتيجة التسوية ومحاولات التوفيق .

ولكن وعد بلفور ليس غامضاً فحسب ، انه يتناقض مع نفسه أيضاً . فعند كلامي على مبدأ تقرير المصير ، في الفصل الثاني ، أشرت الى أن فَرْض الوطن القومي اليهودي على شعب فلسطين ضدّ ارادتهم يتعارض وصيانة حقوق السكان الفلسطينيين غير اليهود . وأسوأ من ذلك أنه فيما كانت بريطانية تعد اليهود بمساعدتهم على انشاء وطن قومي لهم كانت تعد في الوقت نفسه — بل قبل ذلك ايضاً — العربَ وعوداً ضخمة بالحرية والاستقلال . ولكنها لم تفِ بوعودها تلك بعد ان وضعت

الحرب أوزارها .

وميثاق عصبة الامم انما انشأ نظام الانتداب لتدريب البلدان التي سُلخت عن الامبراطورية العثمانية على الحكم الذاتي ، على اعتبار ان هذه البلدان بلغت مرتبة من التطوّر تساعدها على التمتع بالاستقلال في مستقبل قريب . وكان عرب فلسطين ، البالغ عددهم آنذاك ٩٣ ٪ من سكان البلاد المقدسة ، قد بلغوا مرتبة من التطور كالتي بلغها العرب في أجزاء اخرى من الامبراطورية العثمانية . ومع ذلك فقد فُرضت فكرة الوطن القومي على البلاد برغم معارضة أهلها ومقاومتهم . وأُدمِج وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين ، وبذلك تناقض الانتداب مع الغرض الرئيسي الذي من أجله وُضع النظام الانتدابي . ومن هنا جاز لرجل الشارع ان يفترض بان محكمة العدل الدولية جديرة بان تعتبره فاسداً .

وحين احتج العرب بان انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يتنافى مع حق الشعوب في تقرير مصيرها ردت الحكومة البريطانية على ذلك رسمياً ، في أول آذار سنة ١٩٢٢ ، وبلسان وزير المستعمرات آنذاك ونستون

تشرشل ، قائلةً : « ان بريطانية كانت قد ارتبطت بعهدٍ سابقٍ على ميثاق عصبة الامم » ... وبكلمة ثانية ، فان ارتباط دولة واحدة بعهدٍ سابقٍ جعل مسألة الانسجام والشرعية في عمل المنظمة الدولية مسألة ليست بذات موضوع !! وأياً ما كان فيجب ان نذكر هنا أن وعد ماكماهون للعرب سابق على وعد بلفور بسنتين أو أكثر !!

وهكذا نرى ان الحجة التوراتية ، والحجة التاريخية ، والحجة القانونية ليست من القوة بحيث تخوّل اليهود حق فرض دولتهم الخاصة على سكان فلسطين الاصليين . بقيت بعض الحجج التي يحسن بنا النظر فيها ولكنها كذلك غير كافية لتبرير المطالب الصهيونية .

كثيراً ما يُلقي الصهاينة ، كلما انكر المرء عليهم مطالبهم المجحفة ، هذا السؤال : « ألم يشترِ اليهود الارض ويدفعوا ثمنها ؟ .. » ولكن شراء الارض يقرّر ملكية تلك الارض ليس غير . لا يخوّل المشتري حقاً في السيطرة السياسية على البلاد التي تقع فيها الارض . وحين يفد الاجانب الى بلدٍ ما ويشترون الاراضي فيه

فمن واجبهم ان يخضعوا لقوانين البلاد وحكومتهـــا . فاذا ما استحصلت جماهير منهم ، على جنسية البـــلاد بطريقة مشروعة بحيث صاروا يؤلفون أغلبية السكان فعندئذ يحق لهم أن يهيمنوا على السلطة السياسية . أما شراء الاراضي فليس يشكل في ذاته اي حق سياسي . وليس من شك في اننـــا لن نكون سعداء إذا مـا اشترت جماعة من الروس اراضي في الولايات المتحـدة ثم زعمت لنفسها الحق في ان تقيم دولة لها بين ظهرانينا . أما كون اليهود قد دفعوا اثماناً باهظة مقابل الاراضي التي اشتروها في فلسطين فـــلا يخلع على دعواهم الباطلة لباس الحق . والواقع أن المستعمرات اليهودية كانت تنتظم – عند انتهاء الانتداب البريطاني – ثلث عدد السكان ، وتملك عشر مساحـة أراضيه . وحتى في الـ « رهافيا » الحي اليهودي الاول في المدينة الجـديدة بالقدس ، كان كثير من اليهود يعيشون في بيوت يملكها العرب .

وكثيراً ما يشير الباحثون في المشكلة الفلسطينية الى تأخر السكان العرب عن ركب الحضارة ويجعلون من

ذلك مبرراً للمطالب الصهيونية . ولكن المراقب الذي عاش في فلسطين وعرفها جـديراً بان يكون واقعياً في ما يتصل باحوال العرب الاقتصادية والثقافية . وإن علينا أن نتذكر ، ونحن نستعرض احوالهم هذه ، ما نراه في البيئات من بلادنا بالذات . فهنـاك آلاف من الناس ، في الولايات المتحدة ، الذين لا يعلو مستواهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي عن مستوى أفقر الفلاحين العرب في فلسطين ...

وإذا كان بعض العرب يبدون وكأنمـا يعيشون في القرون الوسطى فليس في ذلك ما يـبرّر النظر اليهم كشعب منحـطّ . إن لهم لتراثــاً ثقافيــاً ضخماً . وانهم ليفخرون به بحق . وهم فيما بينهم متفاوتون في الوضع الاجتماعي ، شأن الاميركيين انفسهم . وهم ، كأفراد ، على ذكاء عظيمٍ . انهم يتعلمون في سرعـة وسهولة . وقد كتب المستر ستريكلاند ، الثقة البريطاني في التعاونيات ، يقول (سنة ١٩٣٠) « ان للفـلاح الفلسطيني لذكاءً حاداً جداً . » وليس من ريب في ان كثيراً من الاشياء الـتي وجد ستريكلاند انها تعوق

تطورهم الاقتصادي تذكّر الى حد بعيد بالمصاعب التي يضطر الفلاحون الاميركيون الى تذليلها . وكثيراً من ابناء الجيل الجديد بين العرب يدركون حقيقة حالهم اتم الادراك ويتحرّقون لهفةً في سبيل تحسينها . وقد حقق العرب تقدماً كبيراً في ظل الانتداب البريطاني فنشطت حركة التعليم على الخصوص شأنها في سائر بلدان الشرق الاوسط كله .

وليس من يُنكر ان النظام الاجتماعي العربي لا يزال إقطاعياً . ولكنّ هذا الوضع نفسه هو موضع نقمة العناصر المثقفة بين العرب . ومن الانصاف ان نذكر ان قروناً متطاولة من الاستبداد وعهود الظلام قد انتهت بالعرب الى هذه الحال . فقد أطفأ الغزو المغولي نور الثقافة العربية التي ازدهرت في ظل الامبراطورية العربية خلال القرون الوسطى ، ثم كان العهد التركي فاذا هو عهد ركود وجمود لا عهد تقدّم وانطلاق . وهنا ايضاً ينبغي أن لا تغيب عن اذهاننا العبودية الفعلية التي يرزح تحت نيرها كثير من الفلاحين في بعض اجزاء الولايات المتحدة ، وفقدان الديموقراطية

الاقتصادية في الصناعة الاميركية . وقد قيل ، وما اكثر الصدق في هذا القول ، ان حكومتنا تتعاون في علاقاتها بالبلدان العربية مع ممثلي الرجعية الاقطاعية قبل كل شيء . وهذا الاتهام يصحّ في الانكليز أيضاً ، كما ينطبق على علاقاتنا بالبلدان الاخرى في اوروبة وآسية.

وخلاصة القول أنه إذا كان العرب لا يزالون ، الى اليوم ، يحاولون الخروج من ظلمات القرون الوسطى فمعنى ذلك انهم محتاجون الى ذلك النوع من المساعدة الذي كانت الارساليات والمؤسسات الثقافية الاميركية تقدّمه اليهم ، ولا تزال ، خلال الجيل الماضي . وقد يكون التقدم بطيئاً ، ولكنا لا نستطيع أن نستعجله باكثر مما يجب . وهو لا يُستحثّ ، وعلى كل حال ، من طريق حمل الناس على كرهنا والخوف منا . وقد عبّر عن وجهة نظر العناصر العربية المثقفة في هذه المسألة وزير خارجية العراق حين قال مخاطباً لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين : « ان العرب يريدون ان يتطوّروا ، في هذا العالم الحديث ، بطريقتهم الخاصة ، ومن داخل ، لأنه ما من ثقافة صحيحة يمكن ان

تحقَّق من طريق الاكراه او التقليد السطحي » . والبرنامج الصهيوني لا يمكن أن يبرَّر بالقول إن العرب شعب متأخر ، كأنما ذلك يخوِّل أيما شعب آخر حق الزحف على بلادهم وانتزاعها منهم . ولا خلاف في ان اتخاذنا من تأخر شعب ما عن ركب الحضارة عذراً لفرض حكومة أجنبية على بلاد ذلك الشعب هو الاستعمار بعينه .

٥. المصالح المسيحية في فلسطين

وبصرف النظر عن قضية العدالة الرئيسية فإن ما يجري في فلسطين يجب ان يهمنا ايضاً كمسيحيين لأن لنا في تلك الديار مصالح مسيحية كثيرة ، ولأن هذه المصالح قد اوذيت اشدّ الايذاء من جراء تقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية في جزء من البلاد وليسمح لي هنا في القول بان الكلام على المصالح المسيحية الخاصة في الديار المقدسة يجب ان لا يُعتبر دليلاً على التعصب الديني . ذلك اننا بسبب من احترامنا العظيم لليهودية والاسلام ، وبسببٍ من تقديرنا لمصالحهم الدينية في فلسطين ، خليقون بان نصرّ — وفي كثير من الحق — على ان لنا نحن ايضاً مصالح دينية يجب ان تُحتَرَم . ان مصالحنا الخاصة كمسيحيين ، شأن مصالحنا القومية

كأميركيين ، يجب ان تظلّ في المرتبة الثانيـة بعد قضية العدالة الاخلاقية الكبرى المتعلقة بحقوق سـكان فلسطين الاصليين . وعلى هذا الاساس تكون مصالحنا المسيحية حقيقةً وهامّة ، ويكون من حقنا ان نطالب باحترامها .

لماذا ينبغي لنا نحن المسيحيين أن نهتم بماجريات الامور في الارض المقدسة ؟ الجواب : لأنها الارض المقدسة ، أرضنا نحن المقدسـة . إنها ارض مـلأى بالذكريات المقدسة العزيزة على قلب كل مسيحي .

لقد حاول مشروع التقسيم الموضوع سنـة ١٩٤٧ ضمان المصالح المسيحية في فلسطين بأن نصّ على ضرورة انشاء منطقة دولية تشمل بيت المقدس وضواحيهـا ، وبيت لحم . ولكن النتيجة الفعليـة لاقرار مشروع التقسيم كانت انقسام القدس في الحال ، الى معسكرين مسلحين متناحرين . وبرغم ذلك فقد كان من الممكن تدويل القدس لو ان الامم المتحدة أسرعت الى اتخاذ تدابير حازمة ، او لو ان الهيئات المسيحية في العالم اصرّت على ذلك . والواقع ان الفاتيكان كان اكثر

المراجع الدينية توكيداً على ضرورة تدويل القـدس ، ولكن خطواته في هذه السبيل جاءت هي أيضاً متأخرة ففي ٢٣ تشرين الاول ١٩٤٨ وجه البابا بيوس الثاني عشر رسالة الى الاساقفة الكاثوليك في جميع انحاء العالم الحّ فيها على ضرورة استصدار ضمانات دولية تكفل للمسيحيين زيارة الاماكن المقدسة في حرية . وفي ١٥ نيسان ١٩٤٩ وجه المقام البابوي رسالـة اخرى إلى الاساقفة بالمعنى نفسه .

وفي اول كانون الاول ١٩٤٨ خطب وايزمان في القدس فقال انه على الرغم من ان ترتيبات خاصة يجب ان تُتخذ في موضوع الاماكن المقدسة بالقدس القديمة فان القدس الجديدة ، اليهودية ، لا يمكن ان توضع تحت الحكم الاجنبي . واذ كان يُدرك ان هناك فئات تطالب بفرض السيطرة اليهودية على المدينة القديمة ايضا فقد نصحها بالتروي والتمسك بأهداب الصبر . وفي ١٠ آذار ١٩٤٩ تكلم بن غوريون في مجلس النواب الاسرائيلي فقال : « ان القدس هي جزء من اسرائيل لا فرق بينها في ذلك وبين اي جزء آخر من البلاد . » وفي

رسالة خاصة الى النيويورك تايمس (٢ نيسان) أبلغت جين كورّيفان ان ثمة حركة « للعودة الى القدس » تضع خطتها حكومة اسرائيل تمهيداً لخطة اخرى تجعل القدس عاصمة الدولة الجديدة . ليس هـذا فحسب بل ان موسى شاريت ، وزير الخارجية الاسرائيلية حدّد غير مرة موقف حكومته من مستقبل القدس قائلاً ان القسم اليهودي من المدينة يجب ان يكون جزءاً من اسرائيل في حين ان المدينة القديمة بأماكنها المقدسة يجب ان تخضع لنظام دولي . وفي اجتماعات هيئة الامم المتحدة التي عُقدت في نوار ، عندما ارجئت الموافقة فترة قصيرة على طلب اسرائيل الانضمام الى الهيئة بسببٍ من اهتمام كثير من الوفود بمسألة القدس وقضية اللاجئين ، اكد مندوب اسرائيل ، ايبان ، ان حكومته تؤيد وضع نظام دولي للقدس كلها ، على شرط ان يقتصر هذا النظام على مراقبة الاماكن المقدسة وحمايتها .

وعلى أية حال فان القدس ليست اعلى مرتبة في القداسة من اماكن كثيرة اخرى في فلسطين . وقد اعتبر واضعو مشروع التقسيم ، حين اقترحوا انشاء

منطقة دولية ، ان للقدس مكانة مقدسة خاصة . ولكن الارض المقدسة ليست هي القدس ، إنها فلسطين كلها فبيت لحم التي ضُمت الى المنطقة الدولية المقترحة ليست اكثر قدسية من الناصرة او بحيرة طبريا او غيرها من المواطن المنتشرة في طول البلاد وعرضها . إن فلسطين بكاملها هي أرضنا المقدسة . إنها ارض المسيح ، الارض التي « تحولت فيها الكلمة الى لحم ودم ، واقامت بيننا . »

والمدينة الرئيسية التي يقدسها المسيحيون ، والتي تخضع اليوم للحكم اليهودي ، هي الناصرة . والواقع ان السلطات اليهودية حاولت ان تجعل من الناصرة مثلاً على ما يمكن ان تكون عليه حال الاماكن المقدسة اذا ما خضعت لاشراف الحكومة الاسرائيلية . ففي عيد الميلاد من سنة ١٩٤٨ اذاعت القوات اليهودية قداساً نصرانياً على العالم بواسطة الراديو . كذلك اتخذت ترتيبات خاصة في القدس سُمح بموجبها للمسيحيين الموجودين وراء الخطوط الاسرائيلية ان ينتقلوا الى الخطوط العربية ، كما اتخذت تدابير خاصة لتمكين

المسيحيين من اجتياز الخطوط ليشهدوا الاحتفـالات الدينية المقامة في بيت لحم . والحق ان مجرد كون هذه التدابير ضرورية ليكشف عن المصاعب التي ينطوي عليها التقسيم نفسه بالنسبة الى المسيحيين . وفي عيـد الفصح من سنة ١٩٤٩ لم تتخذ مثل هذه الترتيبات الا لمصلحة عدد قليل من الممثلين الديبلوماسيين وموظفي الامم المتحدة . وبيت لحم ، بوصفها ضمن المنطقة العربية ، محرمٌ دخولها على مسيحيي المنطقة الاسرائيلية إلا باذن خاص من السلطات العربية والاسرائيلية . كذلك فان الناصرة ، بوصفها ضمن المنطقة الاسرائيلية . محرم دخولها على العرب العائشين وراء الخطوط العربية الا باذنٍ مماثل .

والمعاملة التي لقيتها الكنائس والممتلكات المسيحية الاخرى من جانب القوات الاسرائيلية نتيجة للقتال في فلسطين قضية دقيقة يتعذر على المرء ان يصطنع فيها الصراحة من غير ان يستثير سخطاً عنيفاً . وليس من الخير لنا ان نعلق اهمية كبرى على قصص الفظائع السائرة لان الفظائع ترتكب في ايام الحرب من جنود

الجانبين المتقاتلين . ولكن هناك حقيقة يجب ان يعيها كل مسيحي في العالم . ان اماكن العبادة النصرانية لم تُصب اثناء الحرب الفلسطينية ، بأذى كبير فحسب ، بل دُنست تدنيساً متعمداً : والاخبار الموثوقة ، غير الحزبية ، تُجمع على ان العرب لم يكونوا مسؤولين عن مثل هذه الاعمال ، وان « أبطالها » كانوا من اليهود . والحق ان عدداً من الكهان والرجال العاملين في المؤسسات الاكليركية قُتلوا ، اثناء الحرب ، بالاسلحة اليهودية ، وان بعض الكنائس والمساجد اصيبت باذىً بالغ لم يُبق منها غير آثار ضئيلة . بل ان احد شهود العيان أبلغ انه رأى قرى مدمرة بكاملها فليس فيها مسجد الا وقد سُوّي بالارض ، وان تكن بعض الكنائس قد نجت من هذا المصير الفاجع .

وفي اواخر نوار سنة ١٩٤٨ اذاع الاتحاد المسيحي في فلسطين بياناً سمى فيه ثماني مؤسسات كنسية « وجّه اليهود نيرانهم ، منها ، الى المدينة المقدسة . » كذلك سرد البيان اسماء اربع عشرة مؤسسة مسيحية اصابتها القنابل ، وقد دمر اليهود بعضها او انزلوا بهـا أذىً

فظيعاً ، واصابت قنابـل العرب بعضها الآخر اثر احتلال القوات الاسرائيلية لها . وذكر البيان اسماء ثلاثة من الكهان قُتلوا ، كما نص على ان مائة امرأة وطفلٍ وجماعات اخرى من السكان الآمنين ذهبوا ضحية الهجوم اليهودي. وقد وردت تفاصيل دقيقة عن هذه الفظائع في رسالة لوكالة الصحافة المتحدة صادرة عن القدس في ٣١ نوار سنة ١٩٤٨ . وفي شباط ١٩٤٩ اعلن رئيس اساقفة يورك الانكليكانيين ان « كثيراً من الأديرة والكنائس قد دُنست ، وحطمت صورها وتماثيلها ، وان الاشكال التي تمثل السيد المسيح قد نُزعت عن الصلبان ولوّثت تلويثاً » . ولا يقل عن ذلك فظاعة تعمّد القوات اليهودية المسلحة ، من رجال ونساء ، الرقص في بيوت العبادة النصرانية في كل من القدس وحيفا .

ومصلحة اخرى من مصالح النصرانية في فلسطين تتمثل في اهمية البحث الاركيولوجي والتاريخي في البلاد المقدسة بالنسبة الى دراسة التوراة وتاريخ النصرانية . ومن ابرز الحقوق التي يحسن بجميع المسيحيين المطالبة بها حرية االدخول الى البلاد والتجول فيها لأغراض

علمية . ومن اجل تحقيق هذه الغاية لا بد من اقرار السلم في البلاد . ولست احتاج الى القول ان تقسيم فلسطين الى جزأين جعل الدراسة والبحث التوراتيين اكثر صعوبة ، ومن هنا كان من الخير ان يُنص في ايما صلح عادل يعقد بين الفريقين على ضمان حرية الانتقال بين مختلف مناطق البلاد ، عربية كانت او يهودية ، للمشتغلين بالدراسات التوراتية وما اليها .

ويبدو ان كثيراً من الاميركيين لا يعون ان جزءاً كبيراً من اهل فلسطين الاصليين هم مسيحيون. والواقع ان عدد هؤلاء يبلغ نحواً من ١٤٠ر٠٠٠ مسيحي ومسيحية . ومعظم هؤلاء المسيحيين العرب يتحدرون مباشرة من اولئك السكان الذين سكنوا القرى نفسها ايام الفتح العربي – اي منذ اكثر من الف وثلاثمائة سنة – والذين عاش اسلافهم هناك قروناً عدة قبل ذلك الزمان . واذا كان قسمٌ كبير من السكان المسلمين قد جاءوا الى البلاد بعد الفتح العربي فليس من ريب في أن عرب فلسطين المسيحيين هم على الجملة اقدم سكانها واعرقهم . لقد احتفظوا بدينهم طوال عهد

السيطرة الاسلامية برمته . واكثر من ٧٥٫٠٠٠ الفاً من العرب الذين فروا من المناطق التي يحتلها اليهود هم مسيحيون . والمعتقد ان نحواً من ثلاثين الفاً من المسيحيين لا يزالون الى اليوم في اسرائيل .

ولم تكن آلام اللاجئين المسيحيين اقل من آلام اللاجئين المسلمين . ففي الرسالة الصادرة عن بيت لحم ، والتي سبق لي ان اوردت منها فقرات هذا المقطع المؤثر :

« انه لمؤلم ان يحاول جميع اخواننا في المسيحية ، تقريباً ، النزوح عن فلسطين . ان المسيحيين العرب هم آثار النصرانية العتيقة ، وبقايا المسيحيين الاولين . وعلى الرغم من خطيئاتهم وضروب تقصيرهم فيجب ان نسلّم بأنهم هم الذين رفعوا راية المسيح غير آبهين بالاضطهاد والألم . نحن آسفون لمغادرتنا البلاد المقدسة ، ولكننا مكرهون على ذلك لانه لم يعد في طاقتنا ان نتحمل اكثر مما تحملنا ، وما لم يفكر مسيحيو العالم بما آلت اليه حال مسيحيي البلاد المقدسة فلا بد ان تمحى آثار النصرانية الاولى كلها ، في فلسطين . »

وثمة شيءٌ حَسنٌ واحدٌ نتج عن مأساة فلسطين ونرجو ان يستمر وهو هذا التقارب الوثيق الذي يشد اليوم المسيحيين العرب بالعرب المسلمين . والواقع ان عرب فلسطين المسيحيين كانوا دائماً صفاً واحداً مع المسلمين في معارضتهم للصهيونية . وقد كان بين وفود الدول العربية الى منظمة الامم المتحدة – ولا يزال – شخصيات بارزة من مثل فارس الخوري وقسطنطين زريق مندوبي سورية ، وشارل مالك مندوب لبنان . وليس من ريب في ان العداء المشترك للصهيونيين قد زاد في تقارب المسلمين والمسيحيين شيئاً كثيراً . ففي خلال شتاء وربيع ١٩٤٧ – ١٩٤٨ ، عندما كانت الادارة البريطانية تتقوض أركانها ، واصداء القنابل والعيارات النارية تتجاوب في أرجاء القدس ، أخذ المسيحيون من أهل البلاد الاصليين يعلقون الصليب في اعناقهم ، ليعرف الجميع انهم ليسوا يهوداً . ولن ندرك قيمة هذا التطور الرائع إلا إذا ذكرنا ان الصليب كان في نظر المسلمين ، منذ الحروب الصليبية ، رمزاً بغيضاً للعدوان الاوروبي .

بقي ان ننظر في وضع المسيحيين ، في اسرائيل ، وما يمكن ان يكون عليه في المستقبل . وواضح ان العناصر الاكثر تحرراً ، بين اليهود ، خليقــة بان ترغب في معاملة المسيحيين معاملة عادلة كمواطنين في الدولة الاسرائيلية ، وان الحكومة تبدو ، حتى الآن ، حريصة على اقناع مسيحيي العالم بان اخوانهم في الدين سيعاملون ، في اسرائيل ، معاملة صالحة . ولكن هذا لا ينفي ان كثيراً من اليهود قد عانوا أذى غير قليل ، يوم كانوا أقلية مضطهدة في مختلف البلدان المسيحية ، ومن هنا فقد يعمدون اليوم ، بعد ان أصبحوا اكثرية ساحقة في ارض تحتلها قواتهم المسلحة ، الى الانتقــام لأنفسهم من المسيحيين . وليس من ريب في ان ذلك اليهودي الذي قال لصديق لي في القدس : « عندمــا نستولي على الامر فعندئذ تستطيعون ان تأخذوا مسيحكم الميت وترجعوا الى بلادكم ! » ... اقول ليس من ريب في ان هذا اليهودي هو واحد من هؤلاء .

٦ . المصالح الاميركية

وما يجري في فلسطين يجب ان يهمنا كمواطنين بسبب من الدور البارز الذي لعبته دولتنا في تلك المأساة الفاجعة . والواقع ان حكومتنا اعلنت تأييدها للبرنامج الصهيوني في جميع المناسبات تقريباً . وقد بدأت الالتزامات الاميركية الرسمية ، في هذا الميدان ، في ظل الرئيس ويلسون ، وإن يكن جون آدمز قد عبّر عن اهتمام بالفكرة العامة وعطف عليها . وفي ربيع ١٩٢٢ أقرّ مجلسا الشيوخ والنــواب الاميركيان ، بالاجماع ، قراراً مشتركاً لا يعدو أن يكون تكريراً حرفياً لوعد بلفور ، مع وضع اسم الولايات المتحدة الاميركية محل اسم بريطانية العظمى ، وإضافة فقرة خاصة بحماية الأماكن المقدسة . وفي سنة ١٩٣٥ عقدت

بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة معاهدة انطوت على صك الانتداب على فلسطين ، وبذلك نال هذا الانتداب موافقتنا على الرغم من عدم اشتراكنا في اعمال عصبة الامم . ومنذ ايام ولسون ، الى ايام ترومان ، والتصريحات الموالية للصهيونيين تتعاقب على ألسنة كل رئيس من رؤساء الجمهورية عندنا . يضاف الى ذلك ان حكومتنا مسؤولة عن اقرار هيئة الامم المتحدة لمشروع التقسيم الموضوع سنة ١٩٤٧ ، وعن عدم تنفيذه ، في الوقت نفسه ... وان قبول اسرائيل عضواً في هيئة الامم المتحدة ، انما تم بفضل الجهود الجبارة التي بذلتها حكومتنا في غير ما كلل ولا ملل ...

وما يجري في فلسطين يجب ان يهمنا كمواطنين اميركيين ايضاً لأن كثيراً من مصالحنا القومية المهمة معرّضة اليوم لأشد الخطر . فنحن كأميركيين نرغب في ما هو افضل واحسن لبلادنا ؛ ونحن كأميركيين مسيحيين نريد ان تكون بلادنا نصيرة للحق ، وعدواً للباطل ؛ نريد ان نكون في جانب العدل حيثما كان . وقد تتناقض العدالة مع مصلحتنا القومية . وفي هذه

الحال يجب ان نميز احداهما عن الاخرى ، وان نقدم العدالة على كل شيء . حتى اذا عرفنا وجه العدالة في قضية ما ، انصرفنا الى الاهتمام بمصالحنا القومية ايضاً . وقد نجد ان العدالة والمصلحة القومية تسيران ، في بعض الاحوال ، جنباً الى جنب . وفي السباق الطويل ، لا يمكن أن يكون شيء ما مفيداً اذا كان هذا الشيء متنافياً مع روح العدل والانصاف .

ومهما يكن من امر ، فبسبب من الدور الذي لعبته حكومتنا في تقسيم فلسطين وإقامة دولة اسرائيل فيها ، أصيبت مكانة بلادنا المعنوية في جميع اقطار الشرق الاوسط بأذىً بالغ الى ابعد الحدود . وجميع الذين لمسوا بأنفسهم ما دعاه وندل ويلكي « خزان الارادة الحسنة التي ادخرتها اميركا في الشرق الادنى بفضل جهود متطاولة من العمل التربوي والتبشيري » ليحزّ في نفوسهم ان يروا الى جدران هذا الخزان تتصدع وتتداعى الى السقوط ، بفضل تصريحات حكومتنا واعمالها في السنوات الاخيرة الماضية . ان متخرجي المدارس والكليات الاميركية ، وبخاصة

متخرجي الجامعتين الاميركيتين في بيروت والقاهرة ، لمنتشرون في كل بقعة من بقاع العالم العربي ، وان كثيراً منهم ليحتلون مناصب ذات خطر ونفوذ . ولما كان هؤلاء المتخرجون قد اكتسبوا الى جانب علومهم اعجاباً عظيماً باميركة وحباً صحيحاً لها فقد ساءهم ان تقف الولايات المتحدة هـذا الموقف المخزي من امتهم وبلادهم ...

وبضياع مكانة الولايات المتحـدة الادبية في الشرق الاوسط فقدنا فرصة كـبرى لتقديم خدماتنا المسيحية لشعوب تلك البلاد ، بعد ذلك النجـاح العظيم الذي حظينا به قبل ان تنغمس بلادنا هذا الانغماس كله في مشكلات الشرق السياسية . والواقـع ان الاشمئزاز والشك اللذين استثارتهـما سياستنا الخاطئة كان لهما اثر ملحوظ في تقوية النزعات الرجعية ، وفي إنماء روح العداء لكل ما هو غربي ، في تلك البلاد . ففي ٢٧ ايلول سنة ١٩٤٨ تحدث مندوب الباكستان في باريس عن الصهيونية فقال انها « رأس رمح لعدوان جديد يشنه الغرب ضد الشرق . » وطبيعي أنه لم يقصد بلفظة

« الشرق » روسيا ، ولكن الدول الشرقية والاسلامية . ولا حاجة بنا الى القول ان اثر هذا الرجع (رد الفعل) في احوال المسيحيين الوطنيين في مختلف بلدان الشرق الأوسط ، جدير بأن يكون وخيماً جداً .

والعدالة التي تهمنا قبل كل شيء بوصفنا مسيحيين ، تقضي ان يتمتع شعب فلسطين وان تتمتع شعوب الشرق الاوسط كلها بما هو خير وأفضل . وهذا هو بالذات ما تقضي به مصلحتنا القومية ايضاً . فسلامتنا ورفاهيتنا انما تعتمدان على استتباب السلام وعلى سعادة الشعوب جميعاً . واستتباب السلام يتنافى مع الاستياء الجامح والاضطراب الاقتصادي المخيف .

وقد اصبح واضحاً الآن أن منطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط ذات اهمية عظمى من وجهة النظر الستراتيجية بالنسبة الى الولايات المتحدة من ناحية ، والى الاتحاد السوفياتي من ناحية ثانية . ففي اليونان ، وتركيا وإيران قدمت حكومتنا مساعدة ضخمة في سبيل إقامة سد منيع يصد التوسـع الروسي في اتجاه الجنوب . وهناك دولة غربية اخرى تبدي اهتماماً حيوياً بهـذه

المنطقة ايضاً . وليس من ريب في ان احد الاسباب الرئيسية التي حملت حكومتنا على تأييد اسرائيل هو ضرورة منع الدولة الجديدة من الالتفات نحو روسيا بوصفها صديقتها الاولى . ولعل هذا يفسر سرعة الرئيس ترومان في الاعتراف باسرائيل اعترافاً واقعياً حتى قبل ان تجد الدولة مهلة كافية للاعلان عن وجودها ..

لقد سمعنا كثيراً عن الدولة الجديدة كمظهر بارز للديموقراطية في الشرق الاوسط . صحيح ان الحزب الحاكم في اسرائيل يضمر الصداقة للغرب لعلمه اليقيني بان حياة اسرائيل متوقفة على التأييد الغربي ، وعلى المساعدات المالية الاميركية بصورة خاصة ، ولكن هذه الصداقة للغرب ليست من القوة بحيث ترغّب أسرائيل في مخاصمة روسيا وخلق المنازعات معها ، كما ان بين الاحزاب الاسرائيلية المعارضة عناصر اكثر ميلاً الى الاتحاد السوفياتي . اضف الى ذلك انه اذا ما استطاعت العناصر الموالية للسوفيات ان تتولى زمام الحكم يوماً من الايام في البلاد المقدسة ، فعندئذ نكون قد قدمنا للروس رأس جسر يهدّد من الخلف خط دفاعنا في

تركيا وايران ، بأعظم الاخطار ..

وعلى اية حال فان من مصلحتنا ان نعزز علاقاتنا الودية مع البلدان العربية . ان سلامتنا القومية تقتضينا ان نبذل كل جهد مستطاع لاسترجاع ثقة شعوب الشرق الاوسط بنا وصداقتها لنا . ومن عجبٍ ان كثيراً من الكتاب يزعمون ان هذه الشعوب لن تفيدنا كثيراً ، اذا ما حالفناها في حالة نشوب حرب مع روسيا . فقد ذهب صمنر ويلز الى اننا لا نستطيع ان نمنع الروس من احتلال ايران والعراق ساعة يشاؤون . وانتقص جورج فيلدنغ ايليوت ايضاً من قيمة الدول العربية كحلفاء في الحرب المقبلة . اما عدد كانون الثاني سنة ١٩٤٩ من « مجلة الشرق الاوسط » Middle East Journal (ص ٦٤ – ٦٥) فينص على ان هذه البلدان ذات اهميةٍ كبيرة لنا ، لا كحلفاء اقوياء عسكرياً ، بل كقواعد للعمليات الحربية ومصادر للتموين على اختلاف ضروبه .

واذا كان للرجل العادي ان يبدي رأيه في هذا الموضوع فانه خليق بان يؤكد ان ضعف بلدان

الشرق الاوسط من الناحية الستراتيجية يجب ان يكون في حد ذاته سبباً أقوى للعمل على تسليحها والأخذ بناصرها . وهذا هو — من غير ريب — المبدأ الذي عملنا على اساسه في اليونان وتركيا وايران . وقد ينظر الخبراء العسكريون الى الشرق الاوسط نظرتهم الى مجرد ميدانٍ يمكن ان تدور فيه العمليات العسكرية ، متجاهلين السكان غير آبهين بهم ، ولكن من مصلحتنا في ما احسب ان يكون لنا هناك اصدقاء قلائل نستطيع ان نقول لهم بلغة الكتاب المقدس ، « احتملوا ريثما أجيء . » !

ومن ابرز المخاطر التي تهدد مصالحنا في الشرق الاوسط ذلك البؤس الفاجع الذي يعيش في حمأته اللاجئون العرب . ذلك ان هذا البؤس يجعل من اللاجئين ارضاً خصبة لنشر الافكار الشيوعية ، وهو وضعٌ بدأ عملاء الشيوعية يستغلونه فعلاً ويفيدون منه فائدةً عظيمة . والحق ان العرب لم يكونوا قبل ذلك فريسةً سهلة للشيوعيين . فليس في الدول العربية بروليتاريا صناعية قوية ، والمسيحيون والمسلمون

يستشعرون ان الشيوعية لا تتفق مع عقائدهم الدينية التي يحرصون عليها . ولكن الجماهير الجائعة التي ينهش الاستياء قلوبها معرضة دائماً للخضوع لسلطان المهيّجين الذين يعدونهم بحياة افضل من طريق الثورة ، والشيوعية هي ابداً مستعدةٌ لاستغلال امثال هؤلاء البائسين لنشر الفوضى والاضطراب .

والى القراء هذا المقطع من رسالة شخصية ارسلها اليّ صديق من القدس :

« من الظواهر المؤلمة التي لا يدركها معظم الاميركيين انتشار الشيوعية بين العرب انتشاراً كبيراً بفضل اساليب حكومتنا وسياستها الخاصة بفلسطين . والواقع ان اوساط اللاجئين العرب تمثل التربة الاكثر خصباً لانتشار الشيوعية . انهم اذ يجلسون عاطلين عن العمل ، عالمين بأنه ليس من جهدٍ يُبذل لتأمين سلامتهم الدائمة ، جديرون بان يفتحوا آذانهم وقلوبهم لدعاة الشيوعية المنبثين في صفوفهم . أضف الى ذلك ان العناصر الذكية بينهم ليست في نجوةٍ من الميول الشيوعية . ففي الاسبوع الماضي قال لي شابٌ

مثقف ، « إن تربيتي اميركية ، فقد تلقيت علومي في مدرسة الفرندز برام الله وفي الجامعة الاميركيـــة في بيروت . ولكني آسف الآن لأنني تلقيتُ شيئاً ما ، من الاميركيين . ليس هذا فحسب ، بل انني سأنشيء ابنائي على كره جميـــع الاميركيين والبريطانيين ، وسأستقبل الروس وارحب بهم من كل قلبي . فبعـد كل المظالم التي انزلتها بنا انكلترة وأميركا نحسّ انـه ليس تحت الشمس دولة يمكن ان تعاملنا معاملة أسوأ ، ونرغب اشد الرغبة في ان نجرّب حظنا مع روسيا . »

وليس من ريب في أنه ما من اميركي او مسيحي يستطيع أن يواجه هذه الحالة في عدم مبالاة ...

ويأتي فوق هذه الاعتبارات كلهـــا ، في معرض المصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، موضـــوع البترول . وهو اعتبارٌ مهم جداً يجب ان لا يُغفَـلَ بحال من الاحوال . والواقع ان الصهيونيين يستشعرون الحرج والضيق حين يُذكر شيء من ذلك . انهـــم يقولون انه امرٌ لا علاقة له بقضية فلسطين وانه خليقٌ بان يشوه الصورة ، ولكنه على كل حال جزء من

الصورة وليس لنا ان نخجل به على الاطلاق . انـه مظهر من مظاهر مصلحتنا القومية في الشرق الاوسط ، مظهر يجب ان لا يقدّم على قضية العـدالة الاساسية او يُخلط معها ، ولكن يجب ان يُحسب حسابه مـع الحقائق الاخرى التي تلابس المشكلة .

والواقـــع ان الاضطرابات التي وقعت في فلسطين خلال العام الذي سبق انتهاء الانتـداب البريطاني قد حالت دون تدفق الزيت من آبار الشرق الاوسط الى الغرب . فقـد نسف الارهابيون اليهود مصفاة حيفا . ومنعت الحكومة العراقية ارسال قطرة من الزيت الى فلسطين منذ الايام الاولى للحرب بين العرب واسرائيل وهكذا تعطلت مصفاة حيفا عن العمل . اما المفاوضات التي دارت لمد خط انابيب جديد من العراق الى البحر الابيض المتوسط ، عبر الاراضي السورية ، فقد انقطعت اشهراً بكاملها ، بسبب من استياء السوريين العـام من سياستنا الفلسطينية ، ولاسباب اخرى غير ذلك .

وفي ربيـع ١٩٤٩ تحدّث الاميرال توماس كنكاد ، في خطاب القاه بنيويورك ، عن اهميـة موارد الشرق

الاوسط البترولية بالنسبة الى الولايات المتحدة فقال : « اننا نحتاج هذا الزيت لانعاش اوروبة اقتصادياً ، حسب مشروع مارشال ، ولتموين الاسطول البريطاني واسطولنا الاميركي حين يعملان وراء البحار . اما في زمن الحرب فان الاستيلاء على هذا النفط يكون امراً حيوياً لكل من المعسكرين المتقاتلين . ان ارباح شركات البترول لا علاقة لها بالموضوع . نحن نريد الزيت و كفى !! » . وعلى اية حال فان مشروع الانعاش الاوروبي ليعتمد الى ابعد حدود الاعتماد على بترول الشرق الاوسط . ويقدر الخبراء ان الست عشرة دولة اوروبية المنضمة الى البرنامج سوف تستهلك في سنة ١٩٥٢ مقدار ٢٥٠،٠٠٠ برميل من الزيت يومياً ، و ٦٥ ٪ من هذه الكمية يُتوقع ان تجيء من بلدان الشرق الاوسط .

وبالنظر الى تعاظم أهمية منابع النفط في الشرق الاوسط ، بالنسبة الى سلامتنا ورفاهيتنا الاقتصادية ، فقد كان طبيعياً ان تقف شركات البترول صفاً واحداً مع سلطاتنا العسكرية ووزارة الخارجية الاميركية ، وتلحّ كلها على ضرورة الاحتفاظ بصداقة البلدان العربية التي

ينبع هذا النفط في اراضيها . ومن هنا لم يكن عجيبا ان تعلن شركات البترول الاميركية عن عدائها للصهيونية . وهذا ما يفسر نقمة الصهيونيين على هذه الشركات التي تسعى ، في ما يقولون ، الى ان تفرض نفوذها السيء على سياستنا الخارجية تحقيقاً لمصالحها الانانية . اما جوابي على هذه النقطة فهو ان ضغط الجماعات التي تمثل المصالح التجارية الكبرى يؤلف من غير شك مشكلة من اخطر مشاكلنا القومية . وعلى كل مواطنٍ أميركي أن يأخذ حذره من هذا الخطر. ولكن إذا اقتضت مصلحة بعض الشركات الكبرى ان تدافع عن وجهة نظر معيّنة في السياسة الخارجية فليس لنا ان نتعصب ضدّ ذلك الموقف . وفي هذه المشكلة التي نحن بصددها ، هنا ، تقتضي مصلحة امتنا كلها ان نوثق علائق الودّ والصداقة مع الدول العربية التي تحرص شركات البترول على تقويتها وتعزيزها .

ولكن شركات البترول ليست هي الجماعة الوحيدة التي تضغط على حكومتنا ابتغاء توجيهها وجهة معينة في موقفها من المشكلة الفلسطينية . والواقع ان الضغط

السياسي الذي تفرضه المنظمات الصهيونية على السياسة الاميركية قد بلغ مدى بعيداً كانت له نتائج سيئة جداً . وسواء اكانت قضية الصهيونيين حقاً أو باطلاً فليس من مصلحتنا ان يكون لأي اقلية من اقليات بلادنا مثل هذا النفوذ الطاغي على حكومتنا . ذلك ان حقوق الاقليات ، مهما توسعنا في التفسير وذهبنا فيه مذهباً تحرّرياً ، لا تشمل حق هذه الاقليات في ان تفرض علينا سياستنا الخارجية ... وهل ننسى ان الدور الذي لعبته الصهيونية ، اثناء انتخابات سنة ١٩٤٨ ، قد شوّه وجه سياستنا الداخلية الحقيقي تشويهاً كبيراً ؟ وقد كان هذا صحيحاً ابتداءً من معركة الرئاسة الى المناظرة التي دارت بين ذينك المرشحين لأحد كراسي المجلس البلدي ، واللذين كان كل منهما يزعم للناخبين انه اشد تأييداً للصهيونية من خصمه ، كأن هذا التأييد هو الكفاءة الوحيدة التي تؤهل صاحبها للنهوض بأعباء ذلك المنصب !!...

والخلاصة فان تأييد حكومتنا للقضية الصهيونية ولدولة اسرائيل كان مناقضاً لمصالح الولايات المتحدة

الفضلى ، سواء من حيث الاعتبار القومي ، او الستراتيجية العسكرية ، او السلامة الوطنية ، او الحاجات الاقتصادية ، او السياسية المحلية جميعاً . وقد يكون الاميركيون المسيحيون راغبين في مثل هذا التناقض لو انه كان ينطوي على تضحية المصلحة القومية في سبيل سعادة العالم وخيره . اما حين تصاب المصلحة القومية وتصاب العدالة معها بأعظم الأذى ، كما هو الحال في المشكلة الفلسطينية ، فليس في استطاعتنا ان نتعلق بأهداف المجاملة والمسايرة ...

٧. المصالح اليهودية

ليس من اليسير على اكثر الناس تعصباً للصهيونية ان يُثبت بالبرهان القاطع ان إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين يخدم المصلحة العليا للشعب اليهودي نفسه . والواقع ان مجرّد إثارة هذا السؤال يستثير غضب الصهاينة ونقمتهم . وأنا أذكر أن احد الحاخامين وصف بعض الآراء التي ابديتها في هذا الموضوع فقال انها « أقوال لا مسوّغ لها ، وآراء غير مرغوب فيها » . أما كونها غير مرغوب فيها فذلك جائز ، شأنها في ذلك شأن الحقائق السليمة في كثير من الاحيان . وأما كونها اقوالاً لا مسوّغ لها فهذا على الأقل يحتمل الجدل والنقاش . وعلى اية حالٍ ، فهناك كثيرٌ من اليهود ، وكثيرٌ من المسيحيين ، يشعرون شعوري في

هذه النقطة ويعتقدون ما أعتقد به . والواقع ان الصهيونية ليست هي اليهودية . فبين معارضي الصهيونية جمهرةٌ كبيره من يهود هذه البلاد ، واذا كان كل خصمٍ من خصوم الصهيونية عدواً لليهود فعندئذ يتعيَّن علينا ان نعتبر جميع اولئك اليهود المعارضين للصهيونية خائنين لدينهم وشعبهم . وهذا ، في الحق ، هو ما يفعله الصهاينة . فهم يضغطون على اليهود الذين لا يقرون قضيتهم ضغطاً هو اقرب شيء الى الاضطهاد الحقيقي .

والمقول ان اربعة ملايين يهودي من اصل الخمسة ملايين يهودي الذين يحملون الجنسية الاميركية ، يعطفون ، على الأقل ، على القضية الصهيونية . وحتى فترة قريبة كانت العناصر اليهودية المجددة لا صهيونيةً كلها . وأبرز منظمات اليهود غير الصهيونيين في الولايات المتحدة هو اليوم « المجلس الاميركي للديانة اليهودية » ، وإنما تُدْرك موقفه من الصيغة التي يعرّف اعضاؤه بها نفسهم إذ يقولون انهم « أميركيون يدينون بالدين اليهودي » . إنهم يعارضون الفكرة القائلة بأن اليهود

جنسٌ أو دولة ، ويصرون على ان اليهودية دينٌ ، فهي تقف في علاقتها بالدولة موقف سائر الأديان . بيدَ ان اليهود المعارضين للفكرة الصهيونية لا ينتسبون كلهم إلى هذه المنظمة ولا يشاركونها آراءها . فـ « عصبة الارض الحرة » تشجّع توطين اليهود الجماعي ، ولكنها لا تشترط ان يكون ذلك في مكان واحد ، أو في بلاد يعارض سكانها في قبول اليهود . وفي الولايات المتحدة ايضاً فرعٌ من منظمة اوروبية قديمة هي « عصبة العمل اليهودية » وهي عصبة اشتراكية ، ومن هنا كانت شديدة العداء للفكرة القومية ، ومع ذلك فهي تختلف عن « المجلس الاميركي للديانة اليهودية » في القول بأن اليهود يشكلون كياناً ثقافياً خاصاً .

ومعظم اليهود الذين عارضوا في الماضي فلسفة الصهيونية وبرامجها ما كانوا ينتسبون الى أيٍّ من هذه الجماعات ، ولكنهم كانوا اكثر اليهود المتديّنين تديّناً . والظاهر ان كثرة هؤلاء قد أصبحوا اليوم من أنصار الصهيونية . أما موقفهم التقليدي فكان يتلخص في ان عودة اليهود الى فلسطين لا يمكن ان تتم إلا عندما

يأتي بها الله ، وعندئذ لا تستطيع اي قوة بشرية أن تقف دونها . وكان هذا هو موقف المنظمة الكبرى التي دعت نفسها « آغودات اسرائيل » . وفي دولة اسرائيل اليوم تشكل هذه الجماعة احد احزاب الجبهة الدينية : وبعض اليهود المتدينين في بلادنا — ومن المتعذر تقدير عددهم — لا يزالون يتمسكون بالنظرة الدينية التقليدية الى الصهيونية . يدلك على ذلك هذه الفقرات التي وردت في رسالة كتبها حاخام يهودي لا يزال يعتبر نفسه عضواً في « آغودات إسرائيل » ، ولكنه لم يعد يشترك في أعمالها لاستسلامها للصهيونية . قال هذا الحاخام : « انا يهودي مستقيم الرأي ، معارضٌ للصهيونية وما ترمي اليه من انشاء دولة لليهود ، لأن فيها افتئاتاً على حقوق العرب ، ومن ثم فهي غير عملية ، ولأنها تستعيض عن الدين كأساسٍ تقوم عليه حياة اليهود ، بقومية دنيوية مادية . »

وقد يتساءل بعضهم : لماذا ينبغي للمرء ان يعارض القومية اليهودية ويعطف على الاماني القومية التي تعمر صدور العرب ؟ والجواب ان اليهود يجمعهم كلهم دين

واحد ، ولكنهم مواطنون ينتسبون الى بلدان مختلفة، في حين ان العرب تجمعهم كلهم ثقافة واحدة ولكنهم يدينون بأديان مختلفة ، والبلاد التي يعملون لتحريرها واستقلالها هي بلادهم التي ولدوا على ثراها والتي اورثهم إياها آباؤهم وآباء آبائهم . والحق ان علّة الصهيونية الكبرى هي محاولتها ان تكون ديناً ودولة في وقت واحد . ويحسن بنا ان نذكر هنا ان المشروع الذي نادى به العرب كحل لمشكلة فلسطين كان يقضي باقامة ديموقراطيه فلسطينية تُطلق فيها حرية المعتقد ، ويُفصل فيها ما بين الدين والدولة ، كما هي الحال في الولايات المتحدة ، سواء بسواء . أما اسرائيل فهي تزعم اليوم انها ديموقراطية تكفل لمواطنيها حرية المعتقد ، ولكنها تصرّ في الوقت نفسه على انها دولة يهودية ! ...

وإنشاء دولة اسرائيل ، يعني بالنسبة إلى يهود الولايات المتحدة ، عبئاً مالياً ثقيلاً . فالدولة الجديدة لا تستطيع ان تكفي ذاتها ، اقتصادياً ، إلا بعد فترة طويلة من الزمان ، هذا اذا وُفقت الى هذه الكفاية الذاتية في يوم من الايام . وحتى لو استطاعت

ان تنهض بالأعباء المالية الطبيعية التي تقتضيها دولة في مثل حجمها ، فانها عاجزة حتماً عن تحمل نفقات المهاجرين المتدفقين كالسيل على اراضيها ، من غير ما مساعدة خارجية ضخمة . وفي اجتماع عُقد في نيويورك يوم ٢٠ آذار ١٩٤٩ قال خطباء الصهيونية ان القسم الاعظم من النفقات التي يقتضيها توطين ما بين ٧٥٠،٠٠٠ الى ١،٠٠٠،٠٠٠ مهاجر في اسرائيل خلال السنوات الاربع القادمة يجب ان يُلقى على عاتق اليهود الاميركيين ..

وهناك من يقول إن الاموال الطائلة التي جُمعت من يهود اميركا كمساعدة لاسرائيل قد أساءت كثيراً الى مشاريعهم الثقافية والخيرية في هذه البلاد (الولايات المتحدة) وتهدّدتها بالعجز والافلاس . وقد شكا خطيبٌ كان يتحدث في حفلة اقامتها « كلية الاتحاد العبري » في ٢٦ آذار سنة ١٩٤٩ ، من ان ذلك المعهد وامثاله من المؤسسات العلمية لم تعد تتلقى اعانات مالية كافية من ابناء الطائفة بسبب من اصرار الصهيونيين على إعطاء صفة الاولوية لأعمال الاسعاف

الخارجي . وقد اخبرني بعض الثقات ان حملة الاعانات التي قام بها « صندوق الجالية اليهودية » في احدى مدننا الكبرى قد اخفقت في العام الماضي لأن المحسنين حبسوا عنها هباتهم ليلبوا مطالب اسرائيل الملحّة المستعجلة ..

لقد ناقش كثيرون مشكلة الولاء المزدوج التي صار على اليهود الاميركيين ان يواجهوها بعد انشاء الدولة اليهودية في فلسطين ، وطبيعيّ ان يحنق اليهود حين يذهب رجلٌ من غير ملّتهم الى القول بان ولاء اليهود الاميركيين لأسرائيل يجعلهم اقلّ وطنية وحماسة لبلادهم الاميركية ، ولكن المناقشات التي تدور حول المشكلة في المنظمات اليهودية نفسها ، تكشف الستار عن خطورتها الحقيقية . وأول ما يجب أن يقال ، في هذا الصدد ، هو ان الخطر الذي نخشاه على أمريكا ليس الخيانة او عدم الولاء ، ولكنه الولاء المزدوج لاميركا واسرائيل معاً . إنه ذلك التوتر الذي تخضع له عقول اليهود وضمائرهم من جراء كونهم يدينون بولاءين ليسا متناقضين بالضرورة ، ولكنهما قد يصبحان كذلك في يوم من الايام . والواقع ان اهتمام يهود اميركة

بالمشروعات الخيرية والثقافية في اسرائيل لا يمكن ان يكون موضع اعتراض احد منا ، كما ان العمل على تعزيز الثقافة اليهودية ، في الولايات المتحدة ، ليس محل نقد او معارضة . ولكن الولاء السياسي شيء آخر . ذلك ان الالحاح الحالي على تعزيز التربية والثقافة العبريتين في الولايات المتحدة قد يكون صالحاً كمظهر من مظاهر التعدّد الثقافي شرط ان يكون جزءاً متمماً من إعداد الفرد ليكون مواطناً اميركياً صادقاً. اما حين تُصطنع مدارس اليهود الطائفية ومعسكرات شبابهم لتخريج مواطنين مقبلين لاسرائيل فعندئذ تصبح فائدة هذه المدارس وتلك المعسكرات ، بالنسبة الى بلادنا الاميركية ، مسألة فيها نظر .

وفي نوار ١٩٤٩ نشرت لجنة « المنظمة الصهيونية في اميركة » تقريراً عن الصهيونية وحكومة اسرائيل » جاء فيه ان إنشاء دولة اسرائيل لم يكن له أيّ اثر في مواطنة Citizenship اليهود في البلاد الاخرى ، وان اليهود الذين يعيشون خارج الدولة اليهودية الجديدة يجب ان لا ينسبوا الى الاحزاب السياسية في اسرائيل . ولكنّ

بعض اليهود الاميركيين يشعرون ، بخلاف ذلك ، ان اثر اسرائيل في ولاء اليهود الذين يحملون الجنسية الاميركية يؤلف خطراً حقيقياً . وليس أدلّ على ذلك من ان رئيس « المجلس الاميركي للديانة اليهودية » ، لسّنج روزنوالد ، قال في تقريره السنوي ، في ٢٣ نيسان ١٩٤٩ « ان انشاء دولة اسرائيل المستقلة والاعتراف بها قد قوّى في سرعة بالغة رغبة اليهود القوميين [يقصد غلاة الصهيونيين] في ان يسيطروا على حياتنا وان يذهبوا الى حد الادعاء بان جميع اليهود يتمتعون بقومية يهودية ... » ثم ابدى استياءه من ان ممثلي اسرائيل يتكلمون باسم اليهود جميعاً ، لا باسم الاسرائيليين وحدهم ، ويصرون على اقحام اليهود في مشكلات اسرائيل الاقليمية والسياسية .

والخطر الحقيقي الكامن في الولاء المزدوج يتجلى في ان اليهود الاميركيين الراغبين في ان يكونوا يهوداً مخلصين ليهوديتهم واميركيين مخلصين لأميركيتهم في وقت واحد قد ينزعون بالرغم منهم الى ان يحاكموا قضايا السياسة الاميركية ، لا من وجهة النظر القومية الاميركية الخالصة ، ولكن على ضوء مصلحة اسرائيل

قبل كل شيء ...

وثمة وجه طريف من وجوه الصلة بين اليهود الاميركيين واسرائيل نشأ منذ اعلان الدولة الجديدة في الارض المقدسة . وذلك هو طموح كبير حاخامي اسرائيل الى ان تكون له السلطة الدينية العليا على جميع اليهود في جميع البلدان . وليس من ريب في انه اذا كان يهود العالم راغبين في مثل هذه السلطة فمن حقهم ان لا يُحرَموها . بيد انه ليس من العسير علينا ان ندرك ان نتيجة ذلك قد تكون انشقاقاً أبعد مدىً بين يهود اميركة ويهود البلدان الاخرى . وقد يتساءل المرء ايضاً كيف يمكن لهذه السلطة ان تتم من غير ان يُنقل الى اسرائيل ويعين في المناصب الرسمية هناك اولئك العلماء الذين يخوّلهم تضلعهم الكبير من تفسير القانون الموسوي تلك السلطةَ الوحيدة التي لم تعترف اليهودية بغيرها قط ؟..

ومن النتائج الفرعية التي ادى اليها تطور الاحداث الاخيرة والتي يدركها كثيرٌ من الاميركيين اليهود أحسن الادراك ، ان نشاط القومية اليهودية في الولايات

المتحدة يوشك ان يثير ردَّ فعلٍ عنيفاً ضد اليهود بشكل عام . فليس من شك في ان السبب الرئيسي للنزعة اللاسامية ، او لعداء اليهود واضطهادهم ، يتلخص في انهم يشكلون ، بوصفهم اقليةً ، كبش الفداء لاسيّما « شعور بالنقص يستولي على الاكثرية . وهذا العامل السيكولوجي الاجتماعي يعززه في كثير من الاحيان تعصبٌ ديني هو في حد ذاته منافٍ للتعاليم النصرانية ولكنه فاش بين المسيحيين الى حد بعيد . وواقعية هذه الاسباب الاولية غير الواعية في كثير من الاحيان وعنفها يحتمان على اليهود ان يجتنبوا إضافة ايما أساس جديد ، بل ايما عذر جديد ، اليها . ومن بين اسباب اللاسامية الاضافية رد الفعل ضد تعصب اليهود القومي . والحق ان الاشمئزاز الصالح مما اقترفه بعض اليهود من جرائم قد ينقلب في سهولة ويُسر الى عداء طالح لجميع اليهود .

لقد تعرضت سلامة اليهود ، في مختلف البلدان ، لخطر شديد بسبب من انتصار الصهيونية . ففي العالم العربي استثارت الحركة الصهيونية وانشاء دولة اسرائيل موجة جديدة من شعور العداء نحو اليهود ، ففي

العراق مثلاً جالية يهودية كبيرة كانت الى وقت قريب مطمئنة الى حياتها الناشطة ، معترَفاً بانها عاملٌ مهمٌ في حياة البلاد الاقتصادية . ولكن الشعور العارم المعادي للدولة اليهودية في فلسطين يعرّض اليوم سلامتها للخطر ويقال ان بعض افراد هذه الجالية اظهروا مقاومة شديدة للصهيونية لكي يُبعدو شبح الخطر عن انفسهم ، وان بعضهم ذهب الى حد التطوع في الجيش لمحاربة اسرائيل . ومنذ انشاء الدولة اليهودية وكثير من يهود البلاد العربية يهرعون الى اسرائيل معقّدين مشكلاتها الناشئة عن الهجرة وحسن التمثّل والهضم . ويخشى نفرٌ من اقطاب الصهيونية ان تؤدي هجرة اليهود الشرقيين الذين لم يعتادوا تلك الحياة العصرية المتطرفة التي تسود اسرائيل ، الى متاعب خطيرة يتعين على حكومة تلك البلاد ووكالات الانعاش فيها مواجهتها .

ان هناك اشياء كثيرة اخرى يمكن ان تقال في هذا الموضوع ، ولكن القارىء الذي يمعن الفكرة في الحقائق التي اوجزتها في هذا الفصل خليق بان يشك في ما اذا كان من حق الشعب اليهودي في العالم ان يهلل ويبتهج لنشوء دولة يهودية في فلسطين ...

فهرست

كلمة المعرب	٧
مقدمة المؤلف	١١
دولة اسرائيل	١٨
المظالم التي نزلت بعرب فلسطين	٢٩
مزاعم صهيونية ...	٧٥
المصالح المسيحية في فلسطين	٩٧
المصالح الاميركية	١٠٩
المصالح اليهودية	١٢٤

ثانية ١٥٠/٣/٥٦/٤٠٠٠